رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منهج الأنبياء

في تزكية النفوس

تأليف
سليم بن عيد الهلالي

دار ابن عفان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منهج الأنبياء

في تزكية النفوس

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ

دار ابن عفان

للنشر والتوزيع

الجيزة - ت : ٣٢٥٥٨٢٠ - ص.ب : ٨ بين السرايات

هاتف محمول: ٠١٠١ ٥٨٣٦٢٦

جمهورية مصر العربية

E.mail : ebnaffan@hotmail.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منهج الأنبياء
في تزكية النفوس

تأليف
سليم بن عيد الهلالي

دار ابن عفان للنشر والتوزيع

قال سبحانه وتعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

[الشمس: ٧ ـ ١٠]

وقال رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ آتِ نفسي تَقْواها، وزَكِّها أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاها، أَنْتَ وَلِيُّها ومَوْلاها».

[أخرجه مسلم]

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المقدّمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شُرور أنفسِنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله؛ فلا مضلَّ له، ومَن يضْلِل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنَ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وبَثَّ مِنْهما رِجالاً كَثيراً ونِساءً واتَّقوا اللهَ الَّذي تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عليكُمْ رَقيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ وقُولوا قَوْلاً سَديداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُمْ ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد؛ فإن أحسن الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد؛ فاعلم يا متَّبعاً سنن الهدى التي أوضح معالمها رسول الله ﷺ أن هٰذه الخطبة التي بين يديك هي خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلِّمها لأصحابه رضوان الله عليهم، والتي كان السلف الصالح رحمهم الله يقدِّمونها بين دروسهم وكتبهم وخطبهم ومختلف شؤونهم، وهي خطبة جزلة المباني، خصبة المعاني، كلماتها قليلة، فوائدها جليلة[1]، وقد عدَّها شيخ الإسلام عقد نظام الإسلام والإيمان[2]، وما ذٰلك إلا لأنها اشتملت معالم المنهج النبوي في العقيدة وتزكية النفوس والتلقي:

ـ فأما معالم المنهج النبوي في العقيدة؛ ففي قوله ﷺ: «إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله؛ فلا مضلَّ له، ومَن يضلل؛ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

ـ وأما معالم المنهج النبوي في تزكية النفوس؛ ففي الآيات التي كان يتلوها رسول الله ﷺ في هٰذه الخطبة، ومدارها على تقوى الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

(١) من مقدمتي لـ «شرح خطبة الحاجة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٥ ـ ٦).

(٢) كما في «شرح خطبة الحاجة» لابن تيمية (ص ١٦).

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خلقكُمْ مِنْ نفْسٍ واحدةٍ وخلق مِنها زوجَها وبَثَّ مِنهما رجالاً كَثيراً ونساءً واتَّقوا اللهَ الَّذي تساءَلون بهِ والأَرْحام إِنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رَقيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يـا أَيُّهـا الَّـذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ وقولوا قولاً سَديداً . يُصْلحْ لكُمْ أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُمْ ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

وهٰذه الآيات حوت رصيداً عظيماً في تزكية النفوس:

فالأولى: بيَّنت غاية التقـوى، وهي: الله جلَّ جلالـه؛ لأنـه أهل التقوى والمغفرة.

والثانية: وضَّحت حيثيات الأمر الباعث على تقوى الله؛ فهو الخالق الـذي خلق العبـاد ليعبـدوه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْس إِلَّا لِيَعْبُدونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن ثم يتَّقوه، وهٰذا مجموع في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ والَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ﴾ [البقرة: ٢١].

والثالثة: فصلت ثمار تقوى الله في العقيدة وتزكية النفوس والتلقي.

أما ثمار تقوى الله في العقيدة؛ فهي: القول السديد، وهو محض التوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد.

وأما في تزكية النفوس؛ فهي: تطهيرها من أدرانها وسخائمها، فتغدوا أعمالها صالحة مستقيمة.

وأمـا في التلقي؛ فهي: طاعـة الله ورسـوله، وعدم الالتفات إلى

غيرهما، والتقدم بين يدي الله ورسوله.

ـ وأما معالم المنهج النبوي في التلقي الذي تمخضت عنه خطبة الحاجة؛ فهو قوله ﷺ: «إن أحسن الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

وبيان ذلك: أن كلام الله أحسن الكلام؛ فوجب اتباعه؛ لقوله تعالى: ﴿**والَّذينَ اجْتَنَبوا الطَّاغوتَ أَنْ يَعْبُدوها وأَنابُوا إلى اللهِ لَهُمُ البُشْرَى فَبَشِّرْ عِبادِ. الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئكَ الَّذينَ هَداهُمُ اللهُ وأُولئكَ هُمْ أُولو الأَلْبابِ**﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

وخير الهدي هدي محمد ﷺ؛ فوجب التمسك به، والعض عليه بالنواجذ؛ لأن الحق أحقُّ أن يُتَّبَع؛ كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إلى الحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي للحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إلى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمونَ**﴾ [يونس: ٣٥].

فإذا اعتصم العبد بكتاب ربه وسنة نبيه؛ فقد هُدِي إلى الصراط المستقيم الذي أظهر معالمه الاتباع، وحينئذ اجتنب طريق الشر التي أخبث معالمها الابتداع.

ولذلك رأيت أن أبسط القول في واسطة عقد هذه الخطبة الجامعة المانعة، التي هي عقد نظام الدين، فأوضح معالم المنهج النبوي في تزكية النفوس؛ لأمور؛ منها:

أحدها: أن المنهج النبوي في تزكية النفوس هو منهج جميع

الأنبياء.

الثاني: أن تزكية النفوس ركن من أركان البعثة النبويَّة ومن المهمَّات التي أرساها رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً ودعوة.

الثالث: أن تزكية النفوس أصل في الانطلاقة الكبرى المنتظرة لاستئناف حياة إسلامية على منهاج النبوة.

والدافع لاختيار هٰذه المعالم أمور؛ منها:

١ ـ أن الإمة الإسلامية اختلفت في مناحٍ شتى عقدية وتربوية، وتفرَّقت بها السبل عن سبيل الله، فكان حتماً مقضيّاً أن تستبين معالم سبيل الله في ذٰلك؛ ليحيى من حيَّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

٢ ـ بروز مناهج تربوية محدثة لإصلاح الأمة وإنقاذها، وكل منهج ادَّعى أربابه أنهم الوجه الإسلامي الحق الذي لا ينقذ الأمة غيره.

ولو اطلَّعت عليها يا عبدالله، وبدت لك سوآتها؛ لولَّيت منها فراراً، ولملئت منها رعباً.

ولكن دعاتها لا يزالون يخصفون عليها من زخرف القول غرورا، فأحلوا مريديها داراً بورا، واتَّخذوا هٰذا القرآن مهجورا؛ لأنهم اتَّخذوا الطَّبل والدُّف دستورا.

«وهٰذا يلهي القلب ويصده عن فهم القرآن، وتدبُّره، والعمل بما فيه؛ فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبداً؛ لما بينهما من التضاد؛ فإن القرآن ينهى عن اتِّباع الهوى، ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذٰلك

كله ويحسِّنه، ويهيِّج النفوس إلى شهوات الغي فيثير مكامنها ويزعج قاطنها، ويحركها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لبان، وفي تَهييجها على القبائح فرسا رِهان، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذي لا يفسخ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تنسخ، وهو جاسوس القلب، وسارق المروءة، وسوس العقل، فيطَّلع على سرائر الأفئدة، ويدب إلى محل التخيل، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة والسخافة والرقاعة والرعونة والحماقة، فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل وبهجة الإيمان ووقار الإسلام وحلاوة القرآن؛ فإذا حضر مجالس السماع وتواجد وزفن؛ نقص عقله، وقلَّ حياؤه، وذهبت مروءته، وفارقه بهاؤه، وتخلَّى عن وقاره، واستحوذ عليه شيطانه، وشكا إلى الله إيمانه، وثقل عليه قرآنه، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه، وأبدل من سره ما كان يكتمه، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب والزهزهة والفرقعة بالأصابع، فيميل برأسه، ويهز منكبيه، ويضرب الأرض برجليه، ويدق على أم رأسه بيديه، ويثب وثوب الذباب، ويدور كما يدوز الحمار حول الدولاب، ويصفق بيديه كالنسوان، ويخور كخوار الثيران، ويتأوَّه تأوَّه الحزين، ويزعق كالمجانين.

وصدق مَن قال: السماع يورث النفاق في قوم، والعناد في قوم، والكذب في قوم، والفجور في قوم، والرعونة في قوم»[1].

وما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن نصر الموصلي وقد شاهد هذا الصنف وأفعالهم:

---

(١) وانظر: «إغاثة اللهفان» (٢ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

أَلا قُلْ لَهُمْ قَوْلَ عَبْدٍ نَصوحِ
وحَقُّ النَّصيحَةِ أَنْ تُسْتَمَعْ
مَتَى عَلِمَ النَّاسُ مِنْ دِينِنا
بأَنَّ الغِنا سُنَّةٌ تُتَّبَعْ
وأَنْ يَأْكُلَ المَرْءُ أَكْلَ الحِما
رِ ويَرْقُصَ في الجَمْعِ حَتَّى يَقَعْ
وقالُوا سَكِرْنا بِحُبِّ الإِلهِ
ومَا أَسْكَرَ القَوْمَ إِلَّا القِصَعْ
كَذاكَ البَهائِمُ إِنْ أُشْبِعَتْ
يُرَقِّصُها رِيُّها والشِّبَعْ
ويُسْكِرُهُ النَّايُ ثُمَّ الغِنا
و﴿يَس﴾ لَوْ تُلِيَتْ مَا انْصَدَعْ
فيا لَلْعُقولِ ويَا لَلنُّهَى
أَلَا مُنْكِرٌ مِنْكُمُ للبِدَعْ
تُهانُ مَساجِدُنا بالسَّما
عِ وتُكْرَمُ عَنْ مِثْلِ ذاكَ البِيَعْ[1]

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض، وتحذر من سلوك سبيلهم واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة.

ولله درُّ ابن قيم الجوزية القائل:

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٣ / ٦٦).

بَرِئْنـــا إلـــى الـــلهِ مِنْ مَعْـــشَــرٍ
بِهِم الــرِّضــى من سمــاع الغنى
وكـــم قلتُ يا قومِ أَنْــتُــمْ على
شَفَـــا جُرُفٍ ما بِهِ مِنْ بِنـــا
شفـــا جُرُفٍ تَحْـتَـــهُ هُوَّةٌ
إلـــى دَرَكٍ كَمْ بِهِ مِنْ عَنـــا
وتَكْـــرار ذا الــنُّصــحِ مِنَّـــا لَهُمْ
لِنُــعْــذَرَ فيهِــمْ إلـــى رَبِّـــنـــا
فلمَّـــا اسْــتَـهــانُــوا بتَنْبِيهِنـــا
رَجَــعْـنـــا إلى الـلهِ في أَمْــرِنـــا
فَعِـشْـنَـــا عَلى سُنَّـــةِ المُصْــطَفى
ومَـــاتُـــوا عَلى تِنْــتِـنـــا تِنْتِنـــا(١)

٣ ـ بيان منهج الأنبياء في تزكية النفوس؛ لأن مشكلة الأمة الإسلامية عقديَّة سلوكية:

فأما جانب العقيدة؛ ففيه بحوث كثيرة لا تخلو من نفع وفائدة(٢).

وأما جانب السلوك؛ فلم أر إلا بحوثاً عجفاء لا تنقي، نخاعها نظريات مستوردة من وراء البحار، وعظمها تجارب شخصيَّة لم تصلح مبتدعيها، فكيف تكون منهجاً لإصلاح الأمة؟! ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وما لم يكن يومئذ ديناً؛ فليس اليوم ديناً.

(١) «إغاثة اللفهان» (١ / ٢٢٦).

(٢) انظر: صنو هذا الكتاب الموسوم بـ «منهج الأنبياء في مسائل الإيمان».

وقد كنت سميته: «اختيار الأولى في حقيقة التقوى»[1]، ثم بدا لي أمر فيه خير، فسمَّيته: «منهج الأنبياء في تزكية النفوس».

وأردت بيان الأصول المشتركة والأهداف الجامعة التي بعث الله بها رسله جميعاً في تزكية النفوس.

* * * * *

(١) كما في رسالتي «نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق الأمة» (ص ٥٧).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول
تزكية النفوس من مقوِّمات الأمم

اعلم أخا الإيمان أيَّدك الله بروح منه: أن تزكية النفس لتفيض مكارم الأخلاق من عناصر بقاء الأمم عزيزة قويَّة.

إِنَّـمـا الأمَـمُ الأخْـلاقُ مَا بَقِيَتْ
فإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْـلاقُهُمْ ذَهَبُـوا

لذلك؛ فأمر التزكية ذو بال؛ لأنه يؤثر على قيام المجتمع سلباً وإيجاباً؛ لأن تزكية النفوس أصل تقوم عليه أوامر الله في النفس البشرية، فإذا طُوِّعت هذه النفس على الخلق الكريم والسلوك القويم؛ فإنها راغبه في تعظيم شعائر الله والتزام منهجه.

ومن أصدق من الله حديثاً؛ فهو القائل: ﴿**ذلكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فإنَّها مِنْ تَقْوى القُلوبِ**﴾ [الحج: ٣٢].

والأخلاق الكريمة صلب الشريعة السمحة، وجماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ؛ فلا بدَّ من تطبيع النفس عليها حتى تفلح وتقوم على أمر الله.

يوضِّحه:

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني
دعوة الأنبياء إلى تزكية النفوس

ولما كانت هذه الحقيقة سنة كونية شرعية؛ فإن جميع المرسلين دعوا أقوامهم إلى تحقيقها والسير على هداها.

فهذا نوح عليه الصلاة والسلام، أول رسول إلى الناس، يخاطب قومه قائلاً ـ كما أخبر الله جلَّ جلاله عنه ـ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٥ ـ ١١٠].

وهذا هود ينذر قومه بالأحقاف؛ قائلاً ـ كما أخبر الله عنه ـ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٥].

وكذلك صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمودُ المُرْسَلينَ . إِذْ قالَ لَهُمْ أَخوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسولٌ أَمينٌ . فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ . ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ العَالَمينَ . أَتَتْرُكونَ مَا هَا هُنا آمِنينَ . في جَنَّاتٍ وعُيونٍ . وزُروعٍ ونَخْلٍ طَلْعُها هَضيمٌ . وتَنْحِتُونَ في الجِبالِ بُيوتاً فارِهينَ . فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعونِ . ولا تُطيعُوا أَمْرَ المُسْرِفينَ . الَّذينَ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ولا يُصْلِحونَ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٥١].

ولوط عليه الصلاة والسلام كذلك: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المُرْسَلينَ . إِذ قالَ لَهُمْ أَخوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسولٌ أَمينٌ . فاتَّقوا اللهَ وأَطِيعُونِ . وما أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ العَالَمينَ . أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٧٥].

وشعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿كَذَّبَتْ أَصْحابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسولٌ أَمينٌ . فاتَّقوا اللهَ وأَطِيعونِ . ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ العَالَمينَ . وأَوْفُوا الكَيْلَ ولا تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرينَ . وزِنُوا بالقِسْطاسِ المُسْتَقيمِ . ولا تَبْخَسوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ولا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدينَ . واتَّقُوا الَّذي خَلَقَكُمْ والجِبِلَّةِ الأَوَّلينَ...﴾ الآيات [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٩٠].

وموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿والَّذينَ يُمَسِّكونَ بالكِتابِ وأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ المُصْلِحينَ . وإِذ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ واذْكُروا ما فيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ﴾

[الأعراف: ١٧٠ ـ ١٧١].

وقول موسى عليه السلام لفرعون؛ كما أخبر تعالى عنه: ﴿**فقُلْ هَلْ لك إلى أنْ تزكّى . وأهْدِيَك إلى رَبِّك فتخْشى**﴾ [النازعات: ١٨-١٩].

وعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**ولمَّا جَاءَ عِيْسى بالبَيِّناتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بالحِكْمَةِ ولأبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذي تَخْتَلِفونَ فيهِ فاتَّقُوا اللهَ وأَطيعونِ**﴾ [الزخرف: ٦٣].

وقال تعالى مخبراً أيضاً عنه: ﴿**ومُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ ولأحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وجِئْتُكُمْ بآيةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فاتَّقُوا اللهَ وأَطيعونِ**﴾ [آل عمران: ٥٠].

وهٰذا ما سار عليه جميع المرسلين؛ كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِن الطَّيِّباتِ واعْمَلوا صالِحاً إنِّي بِما تَعْمَلونَ عَليمٌ . وإنَّ هٰذهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ واحِدَةٌ وأنا رَبُّكُمْ فاتَّقونِ**﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢].

وفي الجملة فالتقوى هي وصية الله لجميع خلقه، وبعث بها جميع رسله، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النساء: ١٣١].

فإن قال قائل: هٰذه الآيات تحضُّ على التقوى؛ فما بال تزكية النفوس قد حشرت في معناها؟

قلنا: ألم تعلم يا عبدالله أن تقوى الله هي تزكية النفوس شبراً بشبر وذراعاً بذراع؟!

إن تقوى الله نبعٌ يمدُّ النفوس بمادة تطهيرها.

وإن شئت أن تسمع آيات الله التي تنتظم هٰذه المعاني:

فقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**ونَفْسٍ ومَا سَوَّاها . فأَلْهَمَها فُجورَها وتَقْواها . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها . وقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها**﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]؛ فهٰذه الآيات نصٌّ على أن العبد يزكِّي نفسه بتقوى الله عز وجل.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى**﴾ [النجم: ٣٢]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقى . الَّذي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**﴾ [الليل: ١٨]؛ يبيِّنان لك أن تزكية النفوس هي تقوى الله.

وانظر إلى قول رسول الله ﷺ بعقلك: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها»[1].

يتَّضح لك:

* * * * *

(١) مسلم (١٧ / ٤١ ـ نووي) من حديث زيد بن أرقم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث
تزكية النفوس ركن من أركان البعثة النبويَّة

إن تزكية النفس البشرية، وتنقيتها من قبائحها، وتصفيتها من أدرانها، والسمو بها إلى مكارم الأخلاق وصالحها: إحدى المهمَّات التي بعث الله من أجلها محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وقد نطق بذلك الكتاب الكريم والسنة المطهَّرة.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسولاً مِنْكُمْ يَتْلو عَلَيْكُمْ آياتِنا ويُزَكِّيكُمْ ويُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ويُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿لقد مَنَّ اللهُ عَلى المُؤمِنينَ إذ بَعَثَ فيهِمْ رَسولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تبارك اسمه: ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسولاً مِنْهُمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ومن ثم؛ فلقد كانت هذه المهمة النبويَّة ركناً في دعوة أبينا إبراهيم

ﷺ؛ كما أخبر الله عنه: ﴿وإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإِسْماعيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ العَليمُ . رَبَّنا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وأَرِنا مَناسِكَنا وتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ . رَبَّنا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسولاً مِنْهُمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

هٰذه أيها المسلمون ملة إبراهيم ﷺ ووصيَّته لبناء أمة مسلمة، ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ولَقَدِ اصْطَفَيْناهُ في الدُّنْيا وإِنَّهُ في الآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحينَ . إِذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمينَ . ووصَّى بها إِبْراهيمُ بَنيهِ ويَعْقوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَموتُنَّ إِلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٤].

وأما السنة المطهرة؛ ففيها الكثيرة الطيب؛ كقوله ﷺ: «إنما بُعِثْتُ لأتمِّم مكارم (وفي رواية: صالح) الأخلاق»[1].

---

(١) صحيح بشواهده:

أخرجه: البخاري في «الأدب المفرد» (ص ٤٢)، وأحمد (٢ / ٣٨١)، والحاكم (٢ / ٦١٣)، وابن سعد في «الطبقات» (١ / ١٩٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٦٥)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق ومعاليها» (ص ٢) من طريق محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.

قلت: وهذا إسناده حسن.

وصححه «الحاكم» على شروط مسلم، ووافقه الذهبي، لكن محمد بن عجلان صدوق فحديثه حسن ولم يخرج له مسلم إلا متابعة(!).

وله شاهد أخرجه مالك (٢ / ٩٠٤) بلاغاً، ومن طريقه ابن سعد في «الطبقات» (١ / ١٩٣). =

لقد بيَّن رسول الله ﷺ أن إحدى مهمَّاته هي إرساء قواعد مكارم الأخلاق وإتمام صالحها وبيان معاليها . . .

أفلا يدلُّ هٰذا كلُّه على أن تزكية النفوس لها دورٌ هامٌّ في إنشاء مجتمع الخلافة الراشدة على منهاج النبوَّة، وأثر بارز في استئناف الحياة الإسلامية؟!

فإن قيل: هٰذا الحديث في ميدان الأخلاق، فما بال تزكية النفوس؟!

قلت: أليست تزكية النفوس تكون بمكارم الأخلاق، والاستقامة على صالحها، والتمسك بمعاليها، والدعوة إلى حسنها؟!

وإن شئت مزيد بيان؛ فاعلم أن رسول الله ﷺ كان قدوة حسنة، تتحرَّك بين الناس بمكارم الأخلاق، يرونه قائماً على إتمامها خير القيام، حتى استحقَّ أن يزكِّيه الله في كتابه ويشهد له وكفى بالله شهيداً، فقال سبحانه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

وقد تنوَّعت عبارات أهل التفسير في تأويل هٰذه الآية، غير أن أعدل هٰذه الأقوال وأصحها ما ذكرته أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما عندما سُئِلت عن خلق زوجها رسول الله ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن»[1].

= وله شاهد من حديث زيد بن أسلم مرسل، وآخر من حديث جابر بن عبد الله وفيه ضعف.

وبالجملة فالحديث صحيح بشواهده، والله أعلم.

(١) أخرجه: مسلم (٦ / ٢٥ ـ نووي)، وأبو داود (٢ / ٤٠)، والنسائي (٣ / ١٩٩)، والدارمي (١ / ٣٤٥)، وأحمد (٦ / ٥٤، ٩١، ١١١، ١٦٣)، والبيهقي في =

ومعنى هٰذا أنـه ﷺ صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له، وخلقاً تطبعه، فمهما أمره الله في القرآن؛ فعله، ومهما نهاه عنه؛ تركه، هٰذا مع ما جبله الله عليه من الخُلق العـظيم والسلوك القـويم، فلم يُذْكَـر خلقٌ جميلٌ، ونعتٌ محمودٌ؛ إلا ولرسول الله ﷺ الحظ الأوفر؛ لأنه لم تكن له همَّة سوى الله تعالى، فاجتمعت فيه مكارم الأخلاق التي أرسل لإتمامها.

= «دلائل النبوة» (١ / ٣٠٨)، والحاكم (٢ / ٤٩٩، ٦١٣)، وابن جرير الطبراني في «تفسيره» (٢٩ / ١٣)، وابن حبان (٤٦٧) من طرق متعددة عن سعد بن هشام عن عائشة وذكره.

قلت: وله طرق أخرى عنها، منها:

الأول: عن جبير بن نفير عنها.

أخرجه: أحمد (٦ / ١٨٨)، وابن جرير (٢٩ / ١٣).

قلت: وإسناده حسن.

الثانية: عن الحسن قال سألت عائشة وذكره.

أخرجه: أحمد (٦ / ٢١٦).

قلت: وإسناده صحيح وقد صرح الحسن بالسماع.

الثالثة: عن رجل من بني سوأة عنها.

أخرجه: ابن ماجه (٢٣٣٣).

قلت: إسناده ضعيف فيه رجل مبهم.

الرابع: عن قتادة قال سألت عائشة وذكره.

أخرجه: ابن جرير (٢٩ / ١٢ ـ ١٣).

قلت: إسناده منقطع، لأن قتادة لم يسمع من عائشة، كما في «جامع التحصيل» للعلائي.

الخامسة: عن يزيد بن بابنوس عنها.

أخرجه: النسائي في «الكبرى» (١٢ / ٣٣٦ ـ تحفة الأشراف)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١ / ٣٠٩)، والحاكم (٢ / ٣٩٢).

قلت: وإسناده فيه ضعف.

وبهذا يتبيَّن أن الخلق العظيم الذي وُصِف به رسول الله ﷺ هو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به ونهى عنه مطلقاً، حتى صارت المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله ويرضاه واجتناب ما يبغضه ويكرهه بطيب نفس وانشراح صدر، وهذه حقيقة التقوى، فقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً وأتقاهم لله وأعلمهم به.

وبهذا الحق الأبلج ندمغ أوهام بعض الجماعات التي نصبت نفسها داعية لإعادة الخلافة الراشدة ـ زعموا ـ، ومع ذلك قرَّروا في (نظامهم) أن الأخلاق التي تزكِّي النفس البشريَّة لا تؤثر على قيام المجتمع بحال؛ لأن المجتمع يقوم على أنظمة الحياة، وتؤثر فيه المشاعر والأفكار، وأما الخُلق؛ فلا يؤثر في قيام المجتمع ولا في رقيه ولا في انحطاطه!! نعوذ بالله من هوى يصدُّ عن الهدى.

* * * * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع
التَّقوى لغة واصطلاحاً

أصلها (وَقْويٌ) من الوقاية، فأبدلوا من الواو الأولى تاء، وأبدلوا من الواو الثانية ياء، وأدغموها في الياء بعدها(١).

وهي كلمة تدلُّ على دفع شيء عن شيء بغيره، والوقاية ما يقي الشيء، واتَّق الله: توقَّه؛ أي: اجعل بينك وبينه كالوقاية(٢).

ومنه قول نابغة ذبيان:

سَقَطَ النَّصِيفُ ولَمْ تُرِدْ إِسْقاطَهُ
فَتَناوَلَتْهُ واتَّقَتْنا باليَدِ

وقول آخر:

فأَلْقَتْ قِناعاً دُونَهُ الشَّمْسُ واتَّقَتْ
بأَحْسَنَ مَوْصولَيْهِ كَفٍّ ومِعْصَمِ

وبذلك يعلم أن معناها أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذر منه

---

(١) «لسان العرب» (١٥ / ٤٠٣).

(٢) «مقاييس اللغة» (٦ / ١٣١).

وقاية تقيه منه.

فتقوى العبد لربِّه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربِّه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معصيته.

ولذلك؛ فهي: خشية مستمرَّة، وحذر دائم، وتوقٍّ لأشواك الطريق... طريق الحياة... الذي تتجاذبه أشواك الشهوات، وأشواك الشبهات، وأشواك المخاف والهواجس ممَّن لا يملك نفعاً ولا ضرّاً، وأشواك الرجاء الكاذب والأماني فيمن لا يملك تحقيق رجاء أو إجابة دعاء.

ولذلك؛ سأل عمرُ أبيَّ بن كعب رضي الله عنهما عن التقوى؟ فقال أبي: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال عمر: بلى. قال أبي: فما عملت؟ قال عمر: شمَّرت واجتهدت. قال أبي: فذاك التقوى.

وأخذ هٰذا المعنى ابن المعتز، فقال:

خَلِّ الذُّنوبَ صَغيرَها وكَبيرَها فَهُوَ التُّقَى
واصْنَعْ كَماشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرى
لا تَحْقِرَنَّ صَغيرةً إنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصى

ولذلك؛ قد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرَّمات، فينبغي على العبد أن يعلم ما يُتَّقى ثم يَتَّقي.

* * * * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس
التَّقوى في كلام الله ورسوله

تضـاف التقـوى في القرآن الكريم أحياناً إلى اسم الله عزَّ وجلَّ، ومثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿**واتَّقُوا اللهَ الَّذي إليهِ تُحْشَرونَ**﴾ [المائدة: ٩٦].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ ولْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِما تَعْمَلونَ**﴾ [الحشر: ١٨].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿**واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَديدُ العِقابِ**﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقوله سبحانه: ﴿**واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ**﴾ [البقرة: ١٨٩].

والآيات في هٰذا الباب كثيرة.

فإذا أُضيفت التقـوى إليه سبحـانه وتعالى؛ فالمراد: اتَّقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يُتَّقى، ومن ذٰلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي.

قال تعالى: ﴿**ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وإلى اللهِ المَصيرُ**﴾ [آل عمران: ٢٨].

لأنـه: ﴿هُـوَ أَهْـلُ التَّقْـوى وأَهْلُ المَغْفِرَةِ﴾ [المدثِّر: ٥٦]، فهو سبحانه أهل أن يُخشى ويُهاب ويُجل ويُعظم في صدور عباده حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقُّه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة، وقوة البطش، وشدَّة البأس، فمَن اتَّقاه ولم يخش سواه أو يتَّخذ إلٰهاً إلا إياه؛ فهو سبحانه أهل أن يغفر له، ولو بلغت ذنوبه عنان السماء.

ولذلك تضاف التقوى تارة أخرى إلى عقاب الله تعالى:

فتضـاف إلى مكـان هٰذا العقـاب؛ كالنـار؛ كما في قوله تعالى: ﴿واتَّقُـوا النَّـارَ الَّتي وَقـودُهـا النَّـاسُ والحِجارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله: ﴿واتَّقوا النَّارَ الَّتي أُعِدَّتْ للكَافِرينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

وتضاف أيضاً إلى زمانه؛ كيوم القيامة؛ كما في قوله تعالى: ﴿واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعونَ فيهِ إلى اللهِ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله: ﴿واتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ [البقرة: ١٢٣].

وأما في كلام رسول الله ﷺ؛ فزيادة على ما تقدَّم؛ فإنها تُضاف إلى المحظورات:

فمن ذٰلك إضافتها إلى الظلم والشح؛ كقوله ﷺ: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتَّقوا الشح؛ فإن الشحَّ أهلك مَن كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم»[1].

ومن ذٰلك إضافتها إلى دعوة المظلوم؛ كما في قوله ﷺ لمعاذ عندما

---

(١) أخرجه: مسلم (١٦ / ١٣٤ ـ نووي) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أرسله إلى اليمن: «واتَّق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

ومن ذلك إضافتها إلى الدُّنيا وشهواتها؛ مثل النساء؛ كقوله ﷺ: «فاتَّقوا الدُّنيا واتَّقوا النِّساء»[2].

ومن ذلك إضافتها إلى المحارم؛ كقوله ﷺ: «اتَّق المحارم؛ تكن أعبد الناس»[3].

ومن ذلك إضافتها إلى الشُّبهات؛ كقوله ﷺ: «إنَّ الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمَن اتَّقى الشبهات؛ استبرأ لدينه وعرضه، ومَن وقع في الشُّبهات؛ وقع في الحرام؛ كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتَعَ فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملك حمى، ألا وإنَّ حمى الله محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت؛ صلح الجسد كله، وإذا فسدت؛ فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[4].

وبهذا تبيَّن حقيقة التقوى: «أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣ / ٣٥٧ ـ فتح)، ومسلم (١ / ١٩٧ ـ نووي) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) حسن. كما بينته في «إيقاظ الهمم المنتقى...» (ص ١٤٧).

(٤) البخاري (١ / ١٢٦ ـ فتح)، ومسلم (١٥٩٩).

(٥) من كلام طلق بن حبيب.

فإذا انتهى العبد إلى هذه الحال؛ أصبح عنده حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وأصبح قلبه خالصاً لله، سليماً من كل دَخَن، يحذر أن يكون على ضلالة أو أن تستهويه ضلالة.

ولذلك جعل رسول الله ﷺ القلب محل التقوى، فقال ﷺ: «التَّقوى ها هنا»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات[1].

فإذا امتلأ القلب بتقوى الله؛ أفاضها على الجوارح، فصلحت وصلح الجسد كله؛ لأن تقوى القلوب علامتها تعظيم شعائر الله الناتج عن تعظيم الآمر والناهي.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿**ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوى القُلوبِ**﴾ [الحج: ٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

وعندئذ؛ يتفتح الكتاب والحكمة عن أسراره وأنواره، ويسكبها في هٰذا القلب الذي جاءه تقيّاً نقيّاً مهيئاً للتَّلقي، فيصير للعبد فرقان من الله؛ كما قال سبحانه: ﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً**﴾ [الأنفال: ٢٩].

وحينئذ يكون العبد قواماً على نفسه؛ يفتشها، ويحاسبها، ويتفقَّدها.

---

(١) أخرجه: مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه: مسلم (٢٥٦٤) (٣٣) (٣٤) من حديث أبي هريرة.

عن ميمون بن مهران: «لا يكون العبد تقيّاً حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه: من أين مطعمه وملبسه؟»[1].

وهٰذا الحال مقامات:

*** المقام الأول: المشارطة:**

اعلم أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلباً للرِّبح، ويشارطه، ويحاسبه؛ كذٰلك القلب يحتاج إلى مشاركة النفس، ويوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ثم لا يغفل عن مراقبتها؛ فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال؛ لأنها أمَّارة بالسوء، ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣].

ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها؛ فإن هذه التجارة تنجي العبد من عذاب أليم، وربحها الفردوس الأعلى، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدُّنيا، فحتمٌ على كل ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها؛ فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، ولذٰلك؛ فالكيس مَن دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأماني.

ولهٰذا قال الفاروق رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وتزيَّنوا للعرض الأكبر، وإنَّما يخفُّ الحساب يوم القيامة على مَن

---

(١) انظر: «سنن الترمذي» (٤ / ٦٣٨).

حاسب نفسه في الدُّنيا»[1].

* **المقام الثاني: المراقبة:**

إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها؛ لم يبق إلا المراقبة لها، وملاحظتها؛ كما في قوله تعالى: ﴿**واعْلَمُوا أَنَّ الله يعْلَمُ ما في أَنْفُسِكُمْ فاحْذَروهُ**﴾ [البقرة: **٢٣٥**]، وكما جاء في تفسير الإحسان عندما سُئل عنه رسول الله ﷺ، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك»[2]، كأنه أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته عند العبادة.

فصاحب هٰذا المقام:

كأنه يرى الله سبحانه فوق سماواته، على عرشه، مطَّلعاً على عباده، ناظراً إليهم، يسمع كلامهم، ويرى ظواهرهم وبواطنهم.

وكأنه يسمعه وهو يتكلَّم بالوحي، ويكلِّم عبده جبريل، ويأمره وينهاه بما يريد، ويدبِّر أمر مملكته، وأملاكه صاعدة إليه نازلة من عنده به.

وكأنه يشاهده وهو يرضى ويغضب، ويحب ويبغض، ويعطي ويمنع، ويضحك ويفرح، ويثني على أوليائه بين ملائكته، ويذم أعداءه.

وكأنه يشاهده ويشاهد يديه الكريمتين وقد قبضت إحداهما السماوات السبع، والأخرى الأرضين السبع، وقد طوى السماوات السبع بيمينه، وكلتا يديه يمين، كما يُطوى السجل على الكتب.

وكأنه يشاهده وقد جاء لفصل القضاء بين عباده، فأشرقت الأرض

---

(١) انظر: «سنن الترمذي» (٤ / ٦٣٨).

(٢) أخرجه: مسلم (٨) من حديث عمر.

بنوره، ونادى ـ وهو مستو على عرشه ـ بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه مَن قرب.

وكأنه يسمع نداءه لآدم: «يا آدم! قم فابعث بعث النار» بأذنه الآن، وكذلك نداؤه لأهل الموقف: ماذا أجبتم المرسلين؟ وماذا كُنتم تعبدون؟

وبالجملة؛ فيشاهد بقلبه ربّاً عرَّفت به الرسل كما عرفت به الكتب، وديناً دعت إليه الرسل، وحقائق أخبرت بها الرسل، فقام شاهد ذلك بقلبه كما شاهد ما أخبر به أهل التواتر ـ وإن لم يره ـ من البلاد والوقائع، فهٰذا إيمانه يجري مجرى العيان، وإيمان غيره فمحض تقليد العميان»[1].

وينبغي أن يراقِبَ العبد نفسه قبل العمل، وفي العمل، وبعد العمل.

أما قبل العمل؛ هل حرَّكه عليه هوى نفس، أو طلب جاه أو رياسة، أو مغنم زائل، أو الدافع وراءه هو رضى الله وحده؟ فإن كان لله؛ أمضاه، وإلا تركه، وهٰذا هو الإخلاص.

وأما أثناء العمل؛ هل قام هٰذا المقام أو باشر هٰذا العمل؛ تزييناً للناس؛ ليروه فيحمدوه، أو خوفاً أن لا يراه الناس على تلك الحال فيذموه، أو أنه صنع ذلك ليراه الله حيث أمره، ويفتقده حيث نهاه؟ فإن كان الله؛ أمضاه، وإلا استغفر الله.

وأما بعد العمل؛ فهل تحب أن تُحمَد على فعله، ويُثنى عليك بسببه، وتطلب من الناس ذلك تصريحاً أو تلميحاً، فمَن لم يفعل؛ سعيت

---

(١) «مدارج السالكين» (٣ / ١٥٤).

في أذيَّته، أو أنك تفرُّ من ذلك فرارك من الأسد؛ إلا أن يطلع الله عليه خلقه، والعبد لا يحبُّ اطِّلاعهم، فيسر بصنع الله وبفضله عليه، فسروره بطاعة الله لا بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فبِذلك فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعونَ**﴾ [يونس: ٥٨].

وعن أبي ذر رضي الله عنه؛ قال: يا رسول الله! أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[1].

فهذه مراقبة العبد لنفسه في الطاعة، وهو أن يكون مخلصاً فيها.

ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم؛ فإنه لا يخلو من نعمة لا بدَّ من الشكر عليها، ولا يخلو من بليَّة لا بدَّ من الصبر عليها، وكل ذلك من تمام المراقبة.

وبهذا تكون المراقبة دوام علم العبد وتيقُّنه باطلاع الله سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه، فاستدامة هذا العلم واليقين هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطَّلع على عمله وخواطره كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين، ولذلك أوصى رسول الله ﷺ معاذاً قائلاً: «اتَّق الله حيثما كنت»[2]، والغافل عن هذا بمعزل عن حال المتقين.

---

(١) أخرجه: مسلم (٢٦٤٢).

(٢) صحيح بشواهده؛ كما بينته في «تخريج أحاديث الوصية الصغرى» (ص ٩)، و«صحيح كتاب الأذكار وضعيفه» (١٢٦٢ / ٩٩٤).

ولـذلـك؛ فالمـراقبـة هي التعبُّد بأسماء الله: الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمَن أحصاها وحفظها وعقلها وتعبَّد بمقتضاها؛ حصلت له المراقبة.

*** المقام الثالث: المجاهدة:**

قال تعـالى: ﴿**والَّـذينَ جَاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهذا جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته، ومنه مجاهدة النفوس والمرابطة على ثغورها لئلا تنزع إلى أمر الشيطان في غفلة من الإنسان.

وهذا المقام هو المذكور والمراد بقوله: ﴿**ورَابِطُوا**﴾ في خاتمة آل عمران: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ورَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

*** المقام الرابع: التسليم:**

قال تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّموا تَسْليماً**﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه ثلاث مراتب: التحكيم، وسعة الصدر بانتفاء الحرج، والتسليم.

فأما التحكيم؛ فتضمن المشارطة والمراقبة؛ لتقوم النفس على أمر الله ورسوله.

وأما سعة الصدر بانتفاء الحرج؛ فيكمن فيه المجاهدة، حتى يخلص القلب إلى مقام التسليم، الذي هو الخلاص من شبهة تعارض الخبر أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع، أو محبة تزاحم محبَّته، وصاحب هٰذا الخلق هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به؛ فإن التسليم ضد المنازعة والمعارضة، والمعارضة تتولَّد من الاعتراض.

«والاعتراض ثلاثة أنواع سارية في الناس، والمعصوم مَن عصمه الله منها:

النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشُّبَه الباطلة، التي يسميها أربابها قواطع عقليَّة، وهي في الحقيقة خيالات جهليَّة ومحالات ذهنيَّة، اعترضوا بها على أسمائه وصفاته عز وجلَّ، وحكموا بها عليه، ونفوا لأجلها ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ، وأثبتوا ما نفاه، ووالوا بها أعداءه، وعادوا بها أولياءه، وحرَّفوا بها الكلم عن مواضعه، ونسوا بها نصيباً كثيراً ممَّا ذُكِّروا به، وتقطَّعوا لها أمرهم بينهم زُبراً كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هٰذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي، فإذا سلم القلب له؛ رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة، فاجتمع له السمع والعقل والفطرة، وهٰذا أكمل الإيمان، ليس كمَن الحربُ قائم بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره، وأهل هٰذا الاعتراض ثلاثة أنواع:

أحدها: المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم المتضمنة: تحليل ما حرَّم الله سبحانه وتعالى وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صحَّحه وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه وإطلاق ما قيَّده.

وهٰذه هي الآراء والأقيسة التي اتَّفق السلف قاطبة على ذمِّها والتحذير منها، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض، وحذَّروا منهم، ونَفروا عنهم.

النوع الثاني: الاعتراض على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمِّنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله، والتعوُّض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس الجاهلة.

والعجب أن أربابها ينكرون على أهل الحظوظ، وكل ما هم فيه فحظٌّ، ولكن حظَّهم متضمِّن مخالفة مراد الله، والإعراض عن دينه، واعتقاد أنه قربة إلى الله، فأين هٰذا من حظوظ أصحاب الشهوات، المعترفين بذمِّها، المستغفرين منها، المقرِّين بنقصهم وعيبهم، وأنها منافية للدِّين؟!

وهٰؤلاء في حظوظ اتَّخذوها ديناً، وقدَّموها على شرع الله ودينه، واغتالوا بها القلوب، واقتطعوا عن طريق الله، فتولد من معقول أولٰئك وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة وأذواق هٰؤلاء خراب العالم وفساد الوجود وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر وكاد؛ لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به مَن

يحفظه ويبيِّن معالمه ويحميه من كيد مَن يكد.

النوع الثالث: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة، التي لأرباب الولايات التي قدَّموها على حكم الله ورسوله، وحكموا بها بين عباده، وعطَّلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل؛ قدَّمنا العقل.

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس؛ قدَّمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف والوجد: إذا تعارض الذوق والوجد والكشف وظاهر الشرع؛ قدَّمنا الذوق والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع؛ قدَّمنا السياسة.

فجعلت كل طائفة قُبالة دين الله وشرعه طاغوتاً يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل ولنا العقل! والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار! وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر ونحن أهل الحقائق! والآخرون يقولون: لكم الشرع ولنا السياسة!

فيا لها من بليَّة عمَّت فأعْمَتْ، ورزيَّة رَمَتْ فأصْمَت، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت فصمَّت منها الآذان وعميت منها العيون، عطلت لها ـ والله ـ معالم الأحكام، كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام، واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، وصار لأجلها

الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل.

النوع الرابع[1]: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره، وهذا اعتراض الجهال، وهو ما بين جليٍّ وخفيٍّ، وهو أنواع لا تُحصى، وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم، ولو تأمَّل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله؛ لرأى ذلك في قلبه عياناً، فكل نفس معترضة على قدَر الله وقسْمه وأفعاله؛ إلا نفساً قد اطمأنَّت إليه، وعرفته حقَّ المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها، فتلك حظها التسليم والانقياد، والرضى كل الرضى»[2].

ولهذا قال ابن عمر: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر»[3].

وهذا هو التسليم لحكم الله الديني الأمري، وهناك تسليم لحكم الله الكوني القدري، وهذا القسم مزلة أقدام، ومضلة أفهام، حيَّر الأنام، وأوقع الخصام، وهو مسألة الرضى بالقضاء، وسيأتي الكلام عليها ـ إن شاء الله ـ بما فيه كفاية.

ولكن؛ ينبغي للمرء الانقياد لما يقاوي عقله وقياسه مما جرى به حكم الله في الدول قديماً وحديثاً؛ من طي دولة ونشر أخرى، وإعزاز هذه وإذلال هذه، والقسم التي قسمها الله على خلقه، مع شدة تفاوتها وتباين مقاديرها وكيفياتها وأجناسها، فيذعن لحكمة الله في كل ذلك، ولا يعترض

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب: النوع الثالث.

(٢) «مدارج السالكين» (٢ / ٦٩ ـ ٧١).

(٣) أخرجه البخاري (١ / ٤٥ ـ فتح) معلقا بصيغة الجزم.

على ما وقع منها بشبهة وقياس، فيذعن لما غالب قياسه منها، ويسلم للقاسم المعطي بحكمته وعدله؛ فإن من عباده مَن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه؛ لأفسده ذلك، ومنهم مَن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقره؛ لأفسده ذلك، ومنهم مَن لا يصلحه إلا المرض، ولو أصحه؛ لأفسده ذلك، ومنهم من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أمرضه؛ لأفسده ذلك.

وبهذا يتبيَّن لك أن هذا من أجلِّ مقامات الإيمان، وأن أكمل الناس إيماناً أكملهم تسليماً؛ فإن صاحب هذا المقام يهجم على الأمور المفزعة؛ كالجهاد في سبيل الله، وتحمل الأذى في سبيله، والصبر على المكاره، ولا يلتفت إليها، ولا يخاف معها من ركوب الأحوال، واقتحام الأهوال؛ لأن قوة تسليمه تحميه من خطرها، فلا ينبغي له أن يخاف؛ فإنه في حصن التسليم ومنعته وحمايته، والله سبحانه وتعالى الموفِّق بحوله وقوته.

*** المقام الخامس: الرضى:**

وهو أبواب:

الباب الأول: الرضى بالله ربّاً:

الرضى به سبحانه وتعالى ربّاً يتضمَّن شهادة أن لا إله إلا الله، حيث لا يتَّخذ العبد ربّاً غير الله؛ يسكن إلى تدبيره، وينزل عند تقديره.

قال تعالى: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وهُو رَبُّ كُلِّ شيءٍ**﴾ [الأنعام: ١٦٤].

إنها تسبيحة الإيمان الرخية الندية، يتجلَّى من خلالها مشهد التوحيد الباهر الرائع في أنصع صورة... كلمة تقتضي السماوات والأرض وما

فيهنَّ ومن فيهن. . . ثم تظلِّلها كلها بالوحدانية، وتعبدها كلها لله رب العالمين؛ عقيدة، وعبادة، وشريعة. . . فكيف أطلب ربّاً غيره وهو ربُّ كل شيء؟!

وهٰكذا يجيء هٰذا السؤال متناسقاً مع التساؤلات الأولى في مطلع سورة الأنعام ووسطها، تلك التي استهدفت قضية الإيمان:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فاطِرِ السَّماواتِ والأَرْضِ وهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

يعني: معبوداً، وناصراً، ومعيناً، وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمَّن الحبَّ والطاعة.

إن هٰذه القضية. . . قضيَّة اتِّخاذ الله وحده وليّاً بكل معاني كلمة الولي، هي قضية الإيمان في صميمه، تقرِّرها هٰذه الآية بأقوى عبارة وأعمق دليل. . . إنه دليل الفطرة القوي العميق.

لمن يكون الولاء. . . إن لم يكن لفاطر السماوات والأرض الذي خلقهما وأنشأهما؟!

ولمن. . . إن لم يكن للرزَّاق ذي القوَّة المتين، الذي يرزق مَن في السماوات والأرض، الذي يُطعم ولا يَطْعَم ولا يطلب طعاماً؟!

أي عقل يسمح بأن يُتَّخذ غير الله وليّاً؟!

إن كان يتولاَّه لينصره ويعينه؛ فالله هو فاطر السماوات والأرض، فله مَن في السماوات والأرض.

وإن كان يتولاَّه ليرزقه ويطعمه؛ فالله هو الرزَّاق الذي يطعم مَن في السماوات والأرض. . . ففيم الولاء لغير الله الرزَّاق ذي القوة المتين؟!

ثم يأتي التميُّز الواضح؛ فلا مجاملة، ولا مداهنة، ولا أنصاف حلول.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾.

قضية واضحة محدَّدة، لا تقبل ليناً ولا تمييعاً؛ فالله وحده هو المقصود بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع في كل حركة وسكنة، ورفض إشراك غيره، وسخط عبادة ما دونه. . . هٰذا هو الرضى به إلٰهاً، وهو من تمام الرضى به ربّاً، فمَن أعطى الرضى به حقَّه؛ سخط عبادة ما دونه قطعاً؛ لأن الرضى بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته.

وهٰذا هو قطب رحى الإسلام؛ **فالرضى بالله ربّاً يتضمَّن رضى العبد بما يقدَّر عليه، ورضاه بالله إلٰهاً يتضمَّن رضاه بما يؤمر به.**

وإنما كان قطب رحى الدين؛ لأن جميع العقائد والأحكام والأحوال إنما تنبني على توحيد الله عزَّ وجلَّ في العبادة، وسخط ما سواه، فمَن لم يكن له هٰذا القطب؛ لم يكن له رحى تدور عليه، ومن حصَّل هٰذا القطب؛ ثبتت له الرحى، ودارت على القطب، فيخرج من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، فتدور رحى إسلامه على قطب الإيمان والتوحيد الثابت اللازم.

أمور تعين على الرِّضى بالله ربّاً:

١ ـ **التوكُّل على الله**: الرضى آخر التوكُّل، فمَن رسخ قدمه في

التوكُّل والتسليم؛ حصل له الرضى ولا بدَّ.

قال تعالى: ﴿ومَنْ يَتوكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ قدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق: ٣].

٢ ـ التزامُ ما جعلَ الله رضاهُ فيه:

مَن أراد أمراً؛ سلك سبيله الموصلة إليه، فمَن رضي بالله وعن الله؛ التزم ما جعل الله رضاه فيه؛ فإنه يوصله إلى مقام الرضى ولا بدَّ.

٣ ـ معرفةُ العبد بضعفِه وعجزِه:

إذا أبصر العبد ضعفه، واعترف بعجزه؛ لجأ إلى حمى ربه الوثيق، وركنه الشديد، وفوَّض أمره إليه، ورضي بما قدره عليه.

٤ ـ علمُ العبدِ برحمةِ الله بهِ وشفَقَتِه عليه:

الله سبحانه أرحم بالعباد من أنفسهم، وخاصة الذين أنابوا واتَّبعوا سبيله، فقال: ﴿وكانَ بالمُؤمِنينَ رَحيماً﴾ [الأحزاب: ٣].

واعلم أخا الإيمان أن مَن ولج باب الرضى؛ فلا بدَّ أن يدخل بهمَّة عالية، ويخطو بنفس مطمئنة، ويوطِّن قدمه على كل ما يرد عليه من الله، فإن فعل؛ فلن يرجع صفر اليدين.

الرضى عن الله:

واعلم أخا الإيمان أن من رضي بالله ربّاً؛ فإن الله يرضى عنه، فيرضى عن الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿قالَ اللهُ هٰذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقينَ صِدْقُهُمْ لهُمْ جَنَّاتٌ

تَجْري مِن تحتِها الأنهارُ خالِدينَ فيها أَبداً رَضِيَ اللهُ عنهُم ورَضُوا عنهُ ذٰلكَ الفَوْزُ العَظيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: **﴿لا تَجِدُ قوماً يؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورَسولَهُ ولو كانُوا آباءَهُمْ أَو أَبْناءَهُم أَو إِخْوانَهُمْ أَو عَشيرَتَهُمْ أُولٰئكَ كَتَبَ في قُلوبِهِمُ الإيمانَ وأَيَّدَهُمْ بِروحٍ منهُ ويُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ خالِدينَ فيها رَضِيَ اللهُ عنهُمْ ورَضُوا عنهُ أُولٰئكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحونَ﴾** [المجادلة: ٢٢].

وقال جلَّ ثناؤه: **﴿جَزاؤهُم عندَ ربِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خَالِدينَ فيها أَبداً رَضِيَ اللهُ عنهُم ورَضُوا عنهُ ذٰلك لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾** [البيِّنة: ٨].

تضمَّنت هٰذه الآيات جزاؤهم على صدقِهم وإيمانهم وأعمالهم الصالحة ومجاهدة أعداء الله بأن رضيَ الله عنهم فأرضاهم فرضوا عنه، وإنما حصل لهم هٰذا بعد الرضى بالله ربّاً، وبمحمَّد نبيّاً، وبالإسلام ديناً.

لذلك؛ فإن أهل الرضى به هم أهل الرضى عنه، لأن الرضى عنه ثمرة الرضى به، فالرضى به متعلق بأسمائه وصفاته، والرضى عنه متعلق بثوابه وجزائه.

ولذلك؛ فإن الرضى بالله أعلى شأناً وأرفع قدراً من الرضى عن الله؛ لوجوه منها:

١ ـ **أن الرضى بالله خاصٌّ، والرضى عن الله عامٌّ**: فغايته التسليم بقضاء الله وقدره، وأين هٰذا من الرضى بالله ربّاً، وإلٰهاً، ومعبوداً.

٢ ـ والرضى بالله ربّاً فرض من آكد الفروض، فمَن لم يرض بالله ربّاً؛ لم يصحَّ له إسلام، ولا عمل، ولا حال.

٣ ـ والرضى بالله ربّاً يتضمَّن الرضى عنه، ويستلزمه: فإن الرضى بربوبيته هو الرضى بما يأمره به، ويقسمه له، ويقدُرُه عليه، ويعطيه إياه، ويمنعه منه، فمتى لم يرضَ بذلك كله؛ لم يكن قد رضي بالله ربّاً من جميع الوجوه، وإن رضي به ربّاً من بعضها؛ فالرضى به ربّاً من كل وجه يستلزم الرضى عنه، ويتضمَّنه بلا ريب؛ لأن الرضى به أصل الرضى عنه، والرضى عنه ثمرة الرضى به.

أمورٌ تُعينُ على الرِّضى عن الله:

ويتحقَّق الرضى عن الله للعبد إذا استوت في رضاه النعمة والمصيبة؛ بحسب اختيار الله له، وإنما تستوي النعمة والمصيبة في الرضى بهما لوجوه؛ منها:

١ ـ أن المسلم مُفَوِّض أمره لله، والمُفَوِّض راضٍ بكل ما اختاره الله له، ولا سيَّما وهو يعلم كمال حكمة الله، ورحمته، ولطفه، وحسن اختياره.

٢ ـ أن المسلم جازم أنه لا تبديل لكلمات الله، ولا رادَّ لحكمه، فهو متيقِّن أن كلًّا من النعمة والمصيبة بقضاء سابق وقدر حتم.

٣ ـ أن المسلم عبد محض، والعبد لا يسخط لجريان أحكام سيده البر الرحيم المحسن، بل يتلقَّاها كلها بالرضى به وعنه.

٤ ـ أن المسلم محب لله، والمحب الصادق من رضي بما يعامله به

محبوبه.

٥ ـ أن المسلم جاهل بعواقب الأمور، ومولاه الحق أعلم بمصلحته وبما ينفعه: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَق وهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ﴾ [الملك: ١٤].

٦ ـ أن المسلم عارف بربه، حسن الظن به، لا يتَّهمه فيما يجريه عليه من الأمور؛ فَحُسْنُ الظن بالله يوجب للمسلم استواء النعمة والمصيبة عنده، ورضاه بما يختاره له مولاه الحق.

٧ ـ أن المسلم يعلم يقيناً أن حظه من المقدور ما يتلقَّاه به من رضى وسخط، فلا بدَّ له منه، فإن رضي؛ فله الرضى، وإن سخط؛ فله السخط.

٨ ـ أن المسلم يعلم أن أعظم راحته وسروره ونعيمه في الرضى عن ربه ـ تعالى وتقدَّس ـ في جميع الحالات؛ لأن الرضى باب الله الأعظم، ومستراح المحبِّين، فجديرٌ بمَن نصح لنفسه أن تشتدَّ رغبته فيه، وأن لا تستبدل بغيره منه.

٩ ـ أن المسلم يعلم أن السخط يورث الهم والغم والحزن وشتات القلب وكَسْف البال وسوء الحال والظن بالله خلاف ما هو أهله، ولكن الرضى يخلصه من ذلك كله، ويفتح له أبواب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

١٠ ـ أن المسلم يذوق بالرضى طعم السكينة التي لا أنفع له منها؛ لأنها متى نزلت على فؤاده؛ استقام، وصلحت أحواله، وهدأ باله؛ فمِن أعظم نعم الله على عبده المسلم أن ينزِّل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضى عن الله في جميع الحالات.

١١ ـ أن المسلم يفتح بالرضى باب السلامة التي تجعل قلبه سليماً

نقيّاً من الغش والدَّغَل والغلِّ، ولا ينجو عند الله إلا مَن أتى الله بقلب سليم.

وكلَّما كان العبد أشد رضى؛ كان قلبه أسلم، فالحنث والدغل والغش قرين السخط، كما أن سلامة القلب وبرَّه ونصحه قرين الرضى، وكذلك الحسد ثمرة السخط، والقناعة ثمرة الرضى.

١٢ ـ أن المسلم يرى أن السخط يوجب تلوُّن العبد، وعدم ثباته مع الله؛ فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه وهواه، والمقادير تجري بما يلائمه وبما يضادُّه، فكلَّما جرى عليه منها ما لا يلائمه؛ أسخطه، فلا تثبت قدمه في مقام العبوديَّة، فلا يزيل التلوُّن عن العبد مثل الرضى.

١٣ ـ أن المسلم يعلم أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، فقلَّ أن يسلم الساخط من شكٍّ يجتال قلبه ويتغلغل في نفسه وإن كان لا يشعر، ولكن لو وقف لحظة تدبُّر ومحاسبة؛ لوجد يقينه مغلولاً مدخولاً؛ فإن الرضى واليقين أخوان أرضعا بلبان، والشك والسخط قرينان.

١٤ ـ أن المسلم الذي ملأ قلبه بالرضى؛ ملأ الله صدره غنى وأمناً وقناعة، وفرَّغ قلبه لمحبَّته والإنابة إليه، فالرضى يفرِّغ القلب لله، والسخط يفرِّغ القلب من الله.

١٥ ـ أن المسلم الذي رضي بالله وعن الله مبرأ من آفات الحرص والكَلَب على الدُّنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأصل كل بليَّة، وأساس كل رزيَّة؛ فرضاه ينفي عنه مادة هذه الآفات المهلكات.

١٦ ـ أن المسلم الذي سلك سبيل الرضى؛ خرج الهوى من قلبه،

فهواه تبع لمراد ربِّه.

الباب الثاني: الرضى بمحمدٍ ﷺ رسولاً:

الرضى بمحمد ﷺ رسولاً يتضمَّن شهادة أن محمداً رسول الله؛ بكمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، حيث يكون أولى به من نفسه التي بين جنبيه، فلا يتلقَّى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يتحاكم إلَّا إليه، ولا يرضى بحكم غيره ألبتَّة، فإن عجز عنه؛ كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذ لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يُتيمَّم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

قال تعالى: **﴿فلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً ممَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّموا تَسْليماً﴾** [النساء: ٦٥].

فمن رضي بمحمد ﷺ رسولاً؛ سلَّم بحكمه، ورضي بقضائه، فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى؛ رضي كل الرضى، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلَّم تسليماً، ولو مخالفاً لمراد نفسه وهواها، أو قول مقلِّده وشيخه وطائفته وحزبه.

فيا أيها العباد! هٰذا هو طريق الحق والرشاد، فلتنظر نفس أين هي من الحق وأين هي من الرشاد، قبل أن تدَّعي فيُطْلَبَ منها البيِّنة والبرهان؟!

والـدَّعـاوى إنْ لَمْ يُقيمـوا عَلَيْهـا
بَيِّنـاتٍ أَصْـحـابُـهـا أَدْعِـياءُ

الباب الثالث: الرضى بالإسلام ديناً:

من رضي بالله ربّاً؛ فإنه يرضى بما رضي الله، ويختار ما أراده الله، والإسلام هو الدين الذي ارتضاه لعباده، وأمرهم باتباعه، ولن يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً إلا على منهاجه.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿**ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلامِ دِيناً فلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال سبحانه: **اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلِيكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾ [المائدة: ٣].

ولا مناص للعبد حين يبتغي سعادته وراحته وطمأنينة باله وصلاح حاله من الرجوع إلى منهج الله في ذات نفسه، وفي نظام حياته، وفي منهج مجتمعه؛ ليتناسق مع النظام الكوني كله، فإذا انفرد بمنهج من تلقاء نفسه وصنع يديه ونسج خياله؛ فإنه لا يتناسق مع النظام الكوني الذي صنعه الله فأحسن.

والعبد مضطرٌّ أن يعيش في إطار هٰذا الكون، وأن يتعامل مع النظام الكوني، والتناسق بينه وبين هٰذا النظام الطائع لله رب العالمين هو وحده الذي يكفل له التعاون مع الكون بدل التصادم معه... وهو حين يصطدم به؛ يتمزَّق، ولا يؤدِّي الأمانة التي حملها... إنه كان ظلوماً جهولاً، ولكنه حين يتناسق مع الكون؛ يملك معرفة أسراره، وتسخيره، والانتفاع به على الوجه الذي يحقِّق له السعادة والراحة والطمأنينة.

والفطرة الإنسانية في أصلها متناسقة مع ناموس الكون، مسامة لربها إسلام كل شيء وكل حي. . . فمن الجهل أن يختار العبد غيرها، ومن الظلم أن يضعها في غير موضعها.

قال تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ دينِ اللهِ يَبْغونَ . ولَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإِليهِ يُرْجَعونَ**﴾ [آل عمران: ٨٣].

إن العبد حين يخرج بنظام حياته عن ذلك الناموس، لا يصطدم مع الكون فحسب، إنما يصطدم بفطرته التي بين جنبيه، فيشقى، ويتمزَّق، ويحتار، ويقلق، ويحيا كما تعيش البشرية اليوم في عذاب، وحيرة، ونكد.

إن البشرية اليوم تعاني خواءً مريراً. . . خواء روحها من حقيقة الإيمان، وخواء حياتها من منهج الله. . . هٰذا الدين القيم الذي يعيدها في حركة متناسقة مع حركة الكون الذي تعيش فيه.

إن البشرية يلفح وجهها هجير محرق؛ لأنها ابتعدت عن الظل الوارف الندي.

فكان لزاماً أن تجد الشقاق والقلق والحيرة، وترى الخواء والجوع والحرمان. . . ولكن أين المفر؟!

قال تعالى: ﴿**ومَنْ أَعْرَضَ عنْ ذِكْرِي فإِنَّ لهُ مَعيشةً ضَنْكاً**﴾ [طه: ١٢٤].

إنها لن تجد نفسها؛ لأنها ضلّت عن غاية وجودها. . . ولن ترى سعادتها؛ لأنها حادت عن منهج ربها الذي يعيدها إلى حركتها الهادئة المتّزنة المتناسقة مع كل شيء وكل حي. . . ولن يجدوا حلاوة الطمأنينة؛

لأنهم لم يعرفوا الله الذي إليه يرجعون.

ولِمَ هٰذا الشرود عن سبيل الحق، وهٰذا كتاب الله فيه تفصيل كل شيء... ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وهُوَ الَّذي أَنْزَلَ إِليكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً والَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

أفغير الله أبغي حكماً يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهٰذا كتابه، قد أنزله؟!

أفغير الله أبغي حكماً، وهو سبحانه لم يترك شيئاً غامضاً، ولم يجعل عباده محتاجين إلى مصدر آخر؟!

أفغير الله أبغي حكماً، والذين أوتوا الكتاب من قبل يعلمون أن هٰذا الكتاب منزَّل من الله، محتو على المبادىء التي يقوم عليها نظام الحياة، وبهٰذا كان في هٰذا الكتاب غَناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة.

ولا تلتفت أيها العبد الذي رضي بالإسلام ديناً إلى التَّكذيب والجدل الذي تجده من المشركين، ولا إلى الكتمان والجحود الذي تلقاه من أهل الكتاب، ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]؛ لأن الله منجز وعده؛ فقد قرَّر أن كلمته الفاصلة تمَّت، وأنه لا مبدِّل لها بفعل الخلق، ولو اجتمعوا له، ﴿وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلماتِهِ وهُوَ السَّميعُ العَليمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

لقد تمَّت كلمة الله صدقاً فيما قال وقرَّر، ولقد عمَّت كلمة الله عدلاً

فيما شرع وحكم، فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو قيمة أو خلق أو حكم شرعي أو عادة أو تقليد.

فلترض أيها العبد بما رضي الله لك؛ فقد كُفيت وهُديت، واستعن على ذلك بأن تردِّد دائماً: «رضيت بالله ربّاً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً» عند:

١ ـ الأذان:

قال ﷺ: «مَن قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رضيتُ بالله ربّاً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً؛ غفر الله ذنبه»(١).

٢ ـ في الصباح والمساء:

قال رسول الله ﷺ: «مَن قال حين يمسي وإذا أصبح: رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيّاً؛ كان حقّاً على الله أن يُرضِيَه»(٢).

واعلم أن المداومة على هذا الذكر من الخصال الموجبة للجنة.

قال ﷺ: «مَن قال رضيتُ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد

---

(١) أخرجه: مسلم (٤ / ٨٦ ـ نووي).

(٢) أخرجه: الترمذي (٢٣٨٩) من حديث. ثوبان بإسناد فيه ضعف.

وله شاهد عن رجل خدم النبي ﷺ، أخرجه: أحمد (٤ / ٣٣٧ و ٥ / ٣٦٧)، وأبو داود (٥٠٧٢)، وابن ماجه (٣٨٧٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة) (٤ / ٥١٥)، وغيرهم بإسناد يصلح للمتابعة.

فالحديث يتقوى بمجموعهما، والله أعلم.

وقد فصلت ذلك في «صحيح الوابل الصَّيِّب» (ص ٨٨ و٨٩ و١٧٠).

رسولاً؛ وجبت له الجنة»[1].

إذا تمكَّن العبد في أسباب الرضى، وغرس شجرته، وسقاها بالعلم بالله ورسوله، والإخلاص لله، والاتِّباع لرسول الله ﷺ؛ اجتنى ثمرته، وذاق طعمه، عندئذ لا بدَّ أن يتعاهدها بتنقية ما يحوم حول حماها من العاهات، ويحيطها بسور لكيلا تقتحمها العوادي والضواري، حتى تنضج ثمارها، فيجد حلاوتها.

وهٰذا الحال هو ما بيَّنه قول رسول الله ﷺ:

«ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذَفَ في النار»[2].

*** المقام السادس: السكينة والطمأنينة:**

وأصلها الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده المؤمن عند اضطراب نفسه وشدة مخاوفها، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه من الهواجس والخطرات، بل يوجب ذٰلك عنده قوة اليقين والثبات، وزيادة الإيمان، وهٰذا هو الاطمئنان الذي تولد من الرضى.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُها النَّفْسُ المطمَئِنَّةُ ارْجِعي إلى رَبِّكَ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فادْخُلِي في عِبادي وادْخُلي جَنَّتي**﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

---

(١) أخرجه: أبو داود (١٥٢٩)، وغيره، من حديث أبي سعيد الخدري، بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه: البخاري (١ / ٦٠ و٧٢ ـ فتح)، ومسلم (٤٣).

ولهذا أخبر الله سبحانه عن إنزال السكينة على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب:

كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه في الغار، والعدو فوق رؤوسهم، لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآهما، فقال تعالى: ﴿**إِذْ يَقولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا فأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيا واللهُ عَزيزٌ حَكيمٌ**﴾ [التوبة: ٤٠].

وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم لما رأوا من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، وحسبك بضعف عمر رضي الله عنه عن حملها ـ وهو عمر ـ حتى ثبته الله بالصديق رضي الله عنه، حتى إن الله سبحانه ذكر السكينة في هذا الموطن ثلاث مرات، فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ لِيَزْدادُوا إِيْماناً مَعَ إِيْمانِهِمْ ولِلهِ جُنودُ السَّماواتِ والأَرْضِ وكانَ اللهُ عَليماً حَكيماً**﴾ [الفتح: ٤].

وقال أيضاً: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤمِنينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فعَلِمَ ما في قُلوبِهِمْ فأَنْزَلَ السَّكينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثابَهُمْ فَتْحاً قَريباً ومَغانِمَ كَثيرةً يَأْخُذونَها وكانَ اللهُ عَزيزاً حَكيماً**﴾ [الفتح: ١٨ ـ ١٩].

وقال أيضاً: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذينَ كَفَروا في قُلوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ. فأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسولِهِ وعَلى المُؤمِنينَ وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وكانُوا أَحقَّ بِها وأَهْلَها وكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليماً**﴾ [الفتح: ٤٦].

وكيوم حنين حين وَلَّوا مدبرين من شدَّة بأس الكافرين لا يلوي أحدٌ

منهم على أحد: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ في مَواطِنَ كَثيرةٍ ويَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرينَ ثُمَّ أَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلى رَسولِهِ وعَلى المُؤمِنينَ وأَنْزَلَ جُنوداً لَمْ تَرَوْها وعَذَّبَ الَّذينَ كَفَرُوا وذلكَ جَزاءُ الكَافِرينَ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦].

وبهذا يتبيَّن أن السكينة ضمير التقوى ودثارها، والبر شعارها، ألم يقل الله: ﴿فأَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلى رَسولِهِ وعَلى المُؤمِنينَ وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وكَانُوا أَحَقَّ بِها وأَهْلَها﴾ [الفتح: ٢٦]؟

* * * * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس
هل لتزكية النفوس وسائل خاصة؟

إن تزكية النفوس، وتنقيتها من قبائحها، وتصفيتها من أدرانها، والسمو بها إلى مكارم الأخلاق وصالحها: من مهمات الرسل، التي بُعِثوا من أجلها، وقد شغلت حيزاً كبيراً في حياة رسول الله ﷺ؛ لأنها ركن أساس في استئناف حياة إسلامية على منهاج النبوَّة؛ كما سبق بيانه.

والذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة؛ فقد شرع الله وسائل تزكية النفوس، وبيَّنها رسول الله ﷺ للوصول إلى هذه الغاية، ولذلك؛ ليس لتزكية النفوس أعمال خاصَّة بها دون شعائر الإسلام، ويتبيَّن ذلك بثلاث قواعد شريفة:

*** القاعدة الأولى: استقراء شعائر الدين كلها:**

عند استقراء شعائر الإسلام كلها وربطها بهذه الغاية؛ نتبيَّن أنه ليس لتزكية النفوس أعمال خاصَّة من مجموع شرائع الإسلام، بل إن الإسلام عقائد وأحكام، نهايتها التقوى وتزكية النفوس؛ لتستقيم على أمر الله أفراداً وجماعات ومجتمعات، ودونك بيان ذلك:

التوحيد تزكية للنفوس: إن الاعتراف بالحق أس الفضائل وأم

الأخلاق، فرأس الحكمة معرفة الله وعبادته ومخافته، وليس هناك حقٌّ أكبر من الله، ولا أظهر منه عند كل ذي مسكة عقل، ولهذا كان الشرك بالله عزَّ وجلّ رجسٌ؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّما المُشْرِكون نجَسٌ**﴾ [التوبة: ٢٨].

وهكذا يجسم التعبير القرآني نجاسة أرواحهم وخبث نفوسهم، فيجعلها ماهيتهم وكيانهم، فهم بكليتهم وحقيقتهم نجس؛ يستقذره الحس، ويتطهَّر منه المتطهِّرون.

قال ابن كثير رحمه الله: «ودلَّت هذه الآية على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس»[1]، وأما نجاسة بدنه؛ فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم»[2].

هؤلاء دنست قلوبهم، فلم يرد الله أن يطهِّرها، وأصحابها يلجون الدَّنس ويختارون الرِّجس.

﴿**يَا أَيُّها الرَّسولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذينَ يُسارِعُونَ في الكُفْرِ مِنَ الَّذينَ قالُوا آمَنّا بِأَفْواهِهِمْ ولم تُؤمِنْ قلوبُهُمْ ومِنَ الَّذينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ للكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرينَ لم يَأْتُوكَ يُحَرِّفونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقولونَ إِنْ أُوتِيْتُمْ هٰذا فَخُذوهُ وإِنْ لم تُؤتَوْهُ فاحْذَروا ومَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولئكَ الَّذينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلوبَهُمْ لهُمْ في الدُّنيا خِزْيٌ ولَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيمٌ**﴾ [المائدة: ٤١].

---

(١) أخرجه: البخاري (١ / ٣٩٠ ـ فتح)، ومسلم (٣٧١) من حديث أبي هريرة.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ٣٦٠).

وبهذا كله يتبيَّن أن لِلإسلام كله طهر وزكاة ونماء وفضائل، فمن هدي إليه؛ فقد شرح بالإيمان صدراً، فهو على نور من ربِّه، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ومَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ كَذلك يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ على الَّذينَ لا يُؤمِنون﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والوضوء طهارةٌ: كما في قوله تعالى: ﴿فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتطَهَّروا واللهُ يُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

والغسل والتيمُّم طهارة؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وجُوهَكُمْ وأَيْدِيَكُمْ إلى المرافِقِ وامْسَحُوا برؤوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْنِ. وإنْ كُنْتُمْ جُنُباً فاطَّهَّرُوا وإنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أو عَلى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغائِطِ أَو لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فتَيَمَّموا صَعيداً طيِّباً فامْسَحُوا بوجوهِكُمْ وأَيْديكُمْ مِنْهُ ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾ [المائدة: ٦].

واعتزال النساء في المحيض والنفاس طهارة وزكاة؛ كما قال تعالى: ﴿ويَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فاعْتَزِلوا النِّساءَ في المَحيضِ ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فإذا تَطَهَّرْنَ فأْتوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ولذلك جعلت أحكام الوضوء والغسل والتيمُّم في أبواب الطهارة من كتب الفقه.

والطهارة في كتاب الله وسنة رسوله تنتظم طهارة القلب والجوارح.

أما طهارة القلوب؛ ففي قوله تعالى: ﴿**ذلك أَطْهَرُ لِقُلوبِكُمْ وقُلوبِهِنَّ**﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأما طهارة الجوارح؛ ففي قوله تعالى: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ**﴾ [الأنفال: ١١].

وطهارة الجوارح مقترنة بطهارة القلوب؛ لذلك عطف على طهارة الجوارح عصمتهم من رجز الشيطان والربط على القلوب وتثبيت الأقدام.

﴿**ويُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطانِ ولِيَرْبِطَ عَلى قُلوبِكُمْ ويُثَبِّتَ بِهِ الأقدامَ**﴾ [الأنفال: ١١].

وبه نطق الكتاب العزيز: ﴿**وثِيابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤].

قال ابن قيم الجوزية في تفسيرها: «قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهِّر من الذنب، فكنى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم والضَّحَّاك والشعبي والزهري والمحقِّقين من أهل التفسير.

قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية، ولا قذر، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإنِّي بِحَمْدِ اللهِ لا ثَوْبَ غَادِرٍ
لَبِسْتُ ولا مِنْ غَدْرِهِ أَتَقَنَّعُ

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: «طاهر الثياب»، وتقول للفاجر والغادر: «دنس الثياب».

وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على الغدر والظلم والإثم، ولكن البسها وأنت برٌّ طاهر..

وقال الضحاك: عملك فأصلح.

وقال السدي: يقال للرجل إذا كان صالحاً: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب.

وقال سعيد بن جُبير: وقلبك وبيتك فطهِّر.

وقال الحسن والقرطبي: وخُلقك فحسن.

وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها؛ لأن المشركين كانوا لا يتطهَّرون ولا يطهِّرون ثيابهم.

قال طاووس: وثيابك فقصِّر؛ لأن تقصير الثياب طهرة لها.

والقول الأول أصح الأقوال، ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق؛ لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، ولذلك أمر القائم بين يدي الله عز وجل بإزالتها والبعد عنها»[1].

والصلاة تزكية النفوس؛ لأنها تطهِّر النفس والجوراح من الفحشاء والمنكر.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاة تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ لأن في الصلاة ثلاث خلال: الإخلاص، والخشية، وذكر الله،

---

(١) «التفسير القيم» (ص ٥٠٢، ٥٠٣).

فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله يجعله بصيراً.

وهي كذلك اتِّصال بالله، يخجل صاحبه ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها.

وهي تطهر وتجرِّد، ولا ينسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلهما.

والزَّكاة طهارة وتزكية: كما في قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِها وصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ واللهُ سَمِيعٌ عليمٌ**﴾ [التوبة: ١٠٣].

ولهٰذا كانت زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث؛ كما في حديث ابن عباس: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين»[1].

إذن؛ فإنفاق المال ابتغاء مرضاة الله وسيلة لتزكية الأنفس وتطهيرها ونمائها وصلاحها.

﴿**وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقَى . الَّذي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى . ومَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى : ولَسَوْفَ يَرْضى**﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

والصوم تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ على الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ**﴾ [البقرة: ١٨٣].

---

(١) حسن بشواهده كما بيناه في «صفة صوم النبي ﷺ» (ص ١٠١).

ولذلك أخبر عنه الرسول ﷺ: أنه سبب في غفران الذنوب، والعتق من النار، ودخول الجنة، وأنه جُنّة، وأنه له وجاء، فهو حصن من الشهوات؛ لأنه يعظم الأنفس عن شهواتها، ويحبسها عن مألوفها، فتصبح مطمئنة[1].

والحج تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿**الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلوماتٌ فمنْ فرَضَ فيهنَّ الحَجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسوقَ ولا جدالَ في الحَجِّ وما تفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى واتَّقُونِ يا أُولي الألْبابِ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

والنُّسك تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿**والبُدْنَ جَعَلْناها لكُم مِنْ شعائِرِ اللهِ لَكُمْ فيها خيرٌ فاذْكُروا اسْمَ اللهِ عليها صوافَّ فإذا وَجَبَتْ جُنوبُها فكُلوا مِنْها وأَطْعِمُوا القانعَ والمُعْتَرَّ كذلكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكرون. لَنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دِماؤها ولكنْ ينالُهُ التَّقْوى منكُمْ كَذلكَ سَخَّرَها لكُمْ لِتُكَبِّروا اللهَ عَلى مَا هَداكُمْ وبَشِّرِ المُحْسِنينَ**﴾ [الحج: ٣٦ ـ ٣٧].

ومكارم الأخلاق وجماع أمرها الصدق، وهو تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]، و﴿**والَّذي جَاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ أُولئكَ هُمُ المُتَّقونَ**﴾ [الزمر: ٣٣].

وأظهر دلائلها العدل، وهو تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿**ولا يجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوى واتَّقُوا اللهَ إنَّ**

(١) انظر كتابي: «صفة صوم النبي ﷺ في رمضان» (ص ١١ ـ ١٧ و ٢٣ ـ ٢٤) بالاشتراك مع علي حسن عبد الحميد.

اللهَ خبيرٌ بِما تَعْمَلونَ﴾ [المائدة: ٨].

والتسامح والعفو في المعاملات تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وإِنْ طَلَّقْتُموهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَريضةً فَنِصْفُ مَا فرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وأَنْ تَعْفُو أَقْرَبُ للتَّقْوى ولا تَنْسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلونَ بَصيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

والحكم بما أنزل الله تزكية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ يَا أُولي الأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وجميع شعائر الله تزكية؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى المَالَ عَلى حُبِّهِ ذَوي القُرْبَى واليَتامى والمَساكِينَ وابنَ السَّبيلِ والسَّائِلينَ وفي الرِّقابِ وأَقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ والمُوفونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عَاهَدُوا والصَّابِرينَ في البَأْساءِ والضَّرَّاءِ وحينَ البَأْسِ أُولئكَ الَّذينَ صَدَقوا وأُولئكَ هُمُ المُتَّقونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمراد بـ ﴿البِرّ﴾ جميع خصال الخير التي يحبُّها الله، ولذلك عدَّه الله سبحانه أصل التقوى؛ كما في قوله: ﴿ولكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقى﴾ [البقرة: ١٨٩].

فمَن صنع البر؛ فقد اتَّقى، ومَن اتَّقى؛ فقد تزكَّى؛ لأن النفس والقلب يطمئنان إلى البر.

عن وابصة بن معبد؛ قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقال: «جئتَ تسأل عن البر والإثم؟». قلتُ: نعم. قال: «استفتِ قلبكَ، البرُّ ما اطمأنَّت إليه

النفس، واطمأنَّ إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردَّد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[1].

وتقوى الله بتزكية النفوس هي ثمرة العبادة: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ والَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ**﴾ [البقرة: ٢١].

وهذا هو منهج الأنبياء في تزكية النفوس، حيث أمرهم الله سبحانه بعبادته كما في قوله تعالى بعد أن ذكر كثيراً من المرسلين والأنبياء: ﴿**إِنَّ هذهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنا رَبُّكُمْ فاعْبُدونِ**﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ثم أمرهم الله بتقوى الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ واعْمَلوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلونَ عَليمٌ . وإِنَّ هٰذهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ**﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢].

فتبيَّن بذلك أن الطريق المؤدِّي إلى تقوى الله بتزكية النفوس هي العبادة:

«والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر المعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميِّين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

---

(١) صحيح لغيره كما بينته في «صحيح كتاب الأذكار وضعيفه» (١٢٥٥ / ٩٨٨).

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى بقضائه، والتوكُّل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك؛ هي من العبادة لله.

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضيَّة له، التي خلق الخلق لها؛ كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبها أرسل جميع الرسل:

قال تعالى: ﴿**ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ اعْبُدوا اللهَ واجْتَنِبوا الطَّاغُوتَ فمِنْهُمْ مَنْ هَدى اللهُ ومِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَليهِ الضَّلالةُ**﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿**ومَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسولٍ إِلَّا نُوحِي إِليهِ أَنَّهُ لا إله إِلَّا أنا فاعْبُدونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت؛ كما قال: ﴿**واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقينُ**﴾ [الحجر: ٩٩].

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه، فقال تعالى: ﴿**ولَهُ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ ومَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرون عَنْ عِبادَتِهِ ولا يَسْتَحْسِرون . يُسَبِّحون اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرون**﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠].

وذمَّ المستكبرين عنها بقوله: ﴿**وقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ**

﴿الَّذينَ يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ونعت صفوة خلقه بالعبوديَّة له:

فقال تعالى: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بها عِبادُ اللهِ يُفجِّرونَها﴾ [الإنسان: ٦].

وقال: ﴿وعِبادُ الرَّحمٰنِ الَّذينَ يَمْشونَ عَلى الأَرْضِ هَوْناً وإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلونَ قالوا سَلاماً﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى عن المسيح الذي ادُّعيت فيه الإلهية والنبوَّة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَني إِسْرائيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم؛ فإني أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله»[1].

وقد نعَتَهُ الله بالعبوديَّة في أكمل أحواله:

فقال في الإسراء: ﴿سُبْحانَ الَّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١].

وقال في الإيحاء: ﴿فأَوْحى إِلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠].

وقال في الدعوة: ﴿وأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ [الجن: ١٩].

وقال في التحدِّي: ﴿وإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

فالدين كله داخل في العبادة.

---

(١) أخرجه: البخاري (٦ / ٤٧٨ ـ فتح).

وقد ثبت في الصحيح[1] أن جبريل لما جاء النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام؛ قال: «الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: فما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: فما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك».

ثم قال في آخر الحديث: «هٰذا جبريل، جاءكم يعلِّمكم دينكم».

فجعل هٰذا كله من الدين.

والدين يتضمَّن معنى الخضوع والذل، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له.

والعبادة المأمور بها تتضمَّن معنى الذل ومعنى الحب؛ فهي تتضمَّن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له...

وهٰذه العبادة المتعلِّقة بإلٰهية الله تعالى، ولهٰذا كان عنوان التوحيد: لا إله إلا الله؛ بخلاف من يقرُّ بربوبيَّته ولا يعبده، أو يعبد معه إلٰهاً آخر.

وهذه العبادة: هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث المرسلين»[2].

«فإن قيل: فإذا كان جميع ما يحبُّه الله داخلاً في اسم العبادة؛

---

(١) أخرجه: مسلم (٨).

(٢) «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٣٨ ـ ٥١) مختصرا.

فلماذا عطف عليها غيرها؟ كقوله في فاتحة الكتاب: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعينُ**﴾، وقوله لنبيِّه: ﴿**فاعْبُدْهُ وتوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود: ١٢٣]، وقول نوح: ﴿**اعْبُدوا اللهَ واتَّقُوهُ وأَطيعونِ**﴾، [نوح: ٣]، وكذلك قول غيره من الرسل.

قيل: هٰذا له نظائر؛ كما في قوله: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والفحشاء من المنكر.

وكذلك قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإِحسانِ وإِيْتاءِ ذِي القُرْبَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ**﴾ [النمل: ٩٠]، وإيتاء ذي القربى هو من العدل والإحسان؛ كما أن الفحشاء والبغي من المنكر.

وكذلك قوله: ﴿**والَّذينَ يمسِّكونَ بالكِتابِ وأَقاموا الصَّلاةَ**﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وإقامة الصلاة من أعظم التمسُّك بالكتاب.

وكذلك قوله عن أنبيائه: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسارِعُونَ في الخَيْراتِ ويَدْعونَنا رَغَباً ورَهَباً**﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ودعاؤهم رغباً ورهباً من الخيرات.

وأمثال ذٰلك في القرآن كثير.

وهٰذا الباب يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر، فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر؛ لكونه مطلوباً بالمعنى العام والمعنى الخاص.

وتارة تتنوَّع دلالة الاسم بحال الانفراد والاقتران، فإذا أفرد عمَّ، وإذا قرن بغيره خصَّ؛ كاسم (الفقير) و(المسكين)، لما أفرد أحدهما في مثل قوله: ﴿**للفُقَراءِ الَّذينَ أُحْصِرُوا في سَبيلِ اللهِ**﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقوله: ﴿**أَوْ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ**﴾ [المائدة: ٩٢]، دخل فيه الآخر، ولما قرن بينهما في قوله: ﴿**إِنَّما الصَّدَقاتُ للفُقَراءِ والمَساكينَ**﴾ [التوبة: ٦١]؛

صارا نوعين.

وقد قيل: إن الخاص المعطوف على العام، لا يدخل في العام حال الاقتران، بل يكون من هٰذا البابِ.

والتحقيق أن هٰذا ليس لازماً:

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ ومَلائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وجِبْريلَ ومِيكالَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ ومِنْكَ ومِنْ نُوحٍ وإِبْراهيمَ ومُوسى وعِيْسى ابنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة:

تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام؛ كما في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

وتارة لكون العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم؛ كما في قوله: ﴿هُدىً للمُتَّقينَ. الَّذينَ يُؤمِنونَ بالغَيْبِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ. والَّذينَ يُؤمِنونَ بِما أُنْزِلَ إليكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٥].

فقوله: ﴿يُؤمِنونَ بالغَيْبِ﴾؛ يتناول كل الغيب الذي يجب الإيمان به، لكن فيه إجمال، فليس فيه دلالة على أن من الغيب ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبر به، وهو الغيب، وبالإخبار بالغيب، وهو ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

ومن هٰذا الباب قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتابِ وأَقِمِ

﴿الصَّلاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقوله: ﴿والَّذينَ يُمَسِّكونَ بالكتابِ وأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

وتلاوة الكتاب هي اتِّباعه والعمل به؛ كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَتْلونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه﴾ [البقرة: ١٢١]؛ قال: «يحلُّون حلاله، ويحرِّمون حرامه، ويؤمنون بمتشابهه، ويعملون بمحكمه».

فاتِّباع الكتاب: يتناول الصلاة وغيرها، لكن خصَّها بالذِّكر لمزيتها.

وكذلك قوله لموسى: ﴿إِنَّني أَنا اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنا فاعْبُدْنِي وأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾ [طه: ١٤]، وإقامة الصلاة لذكره من أجلِّ عبادته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَقُولوا قَوْلاً سَديداً﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إِليهِ الوَسيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقوله: ﴿اتَّقوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]؛ فإن هٰذه الأمور هي أيضاً من تمام تقوى الله.

وكذلك قوله: ﴿فاعْبُدْهُ وتوكَّلْ عليهِ﴾ [هود: ١٢٣]؛ فإن التوكل هو الاستعانة، وهي من عبادة الله، لكن خُصت بالذكر؛ ليقصدها المتعبِّد بخصوصها؛ فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة، إذ هو سبحانه لا يُعبد إلا بمعونته.

إذا تبيَّن هٰذا؛ فكمال المخلوق في تحقيق عبوديَّته لله، وكلَّما ازداد العبد تحقيقاً للعبوديَّة؛ ازداد كماله، وعلت درجته، ومَن توهَّم أن المخلوق

يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل؛ فهو من أجهل الخلق، بل من أضلِّهم.

قال تعالى: ﴿وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمٰنُ وَلَداً . سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمونَ . لاَ يَسْبِقونَهُ بالقَوْلِ وهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْديهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وقالُوا اتَّخَذَ الرَّحمٰنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيئاً إِدّاً . تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدّاً أَنْ دَعَوْا للرَّحمٰنِ وَلَداً . ومَا يَنْبَغي للرَّحمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً . إِنْ كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً . لَقَدْ أَحْصاهُمْ وعَدَّهُمْ عَدّاً . وكلُّهُمْ آتيهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٨٩ ـ ٩٩].

وقال تعالى في المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وجَعَلْناهُ مَثلاً لِبَني إسرائيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ولَهُ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ ومَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ ولا يَسْتَحْسِرونَ . يُسَبِّحونَ اللَّيْلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسيحُ أَنْ يَكونَ عَبْداً للهِ ولا الملائكَةُ المُقَرَّبُونَ ومَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ ويَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِليهِ جَميعاً فأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ فيُوَفِّيهِمْ أُجورَهُمْ ويَزيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وأَمَّا الَّذينَ اسْتَنْكَفوا واسْتَكْبَروا فيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَليماً ولا يَجِدونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ

اللهِ وليّاً ولا نَصيراً﴾ [النساء: ١٧١ ـ ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿وقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرون عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ﴾ [فاطر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ومِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمْسُ والقَمَرُ لا تَسْجُدوا للشَّمْسِ ولا للقَمَرِ واسْجُدوا للهِ الَّذي لُقَهُنَّ إِنْ كُنْتُم إِيَّاهُ تَعْبُدونَ . فإِنِ اسْتَكْبَرُوا فالَّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحونَ لهُ باللَّيْلِ والنَّهارِ وهُمْ لا يَسْأَمونَ﴾ [فصلت: ٣٧ ـ ٣٨].

وقال تعالى: ﴿واذْكُرْ رَبَّكَ في نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخِيفَةً ودُونَ الجَهْرِ مِنَ القَـوْلِ بالغُدُوِّ والآصالِ ولا تَكُنْ مِنَ الغَافِلينَ . إِنَّ الَّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ ويُسَبِّحونَهُ ولهُ يَسْجُدونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

وهٰذا ونحوه ـ ممَّا فيه وصف أكابر الخلق بالعبادة، وذم مَن خرج عن ذٰلك ـ متعدِّد في القرآن»[1] أهـ.

* القاعدة الثانية: معرفة صفات المتَّقين الكُمَّل والمؤمنين الخُلَّص:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ . ذٰلكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً للمُتَّقينَ . الَّذينَ يُؤمِنونَ بالغَيْبِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ . والَّذينَ يُؤمِنونَ بِما أُنْزِلَ إِليكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنونَ . أُولٰئكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وأُولٰئكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

إن الصفة الكاملة للمتَّقين العابدين هي الوحدة الإيمانية الإيجابية

---

(١) «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٧٦ ـ ٨٢).

الفعَّالة . . . الوحدة التي تقوم على تقوى الله وعبادته؛ لتفرز الأمة الواحدة . . . الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب، والقيام بما افترض الله عليهم، والإيمان برسل الله كافة وكتبه جميعاً، واليقين بعد ذلك بالآخرة . . . هٰذا التكامل الإيماني القائم على الهدي الرباني الذي تمتاز به عقيدة الإسلام، وتتَّصف به النفس المؤمنة، التي ارتضت الإسلام ديناً، ومنهج حياة؛ ليكون العقيدة الخاتمة التي جاءت ليتلقَّى منها الناس جميعاً ويلتقوا عليها كافَّة، ولتهيمن على الحياة البشريَّة بأسرها، وليعيش الناس في كنفها عباداً لله إخواناً، ويتعاهدوا على رفع لوائها أعواناً.

وإذا أخذنا في تفصيل هٰذه الصفة الأولى للمتَّقين إلى مفرداتها التي تتألَّف منها؛ انكشفت لنا هٰذه المفردات عن معان أساسيَّة في حقيقة التقوى وتزكية النفوس ومنهج الأنبياء في ذٰلك.

١ ـ ﴿الَّذينَ يُؤمِنونَ بالغَيْبِ﴾:

اختلفت عبارات المفسِّرين من السلف حول المراد من الغيب، فقيل: هو الله سبحانه، وقيل: القضاء والقدر، وقيل: كل ما أخبر عنه الرسول ﷺ ممَّا لا تهتدي إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار.

وهٰذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها؛ لأن جميع المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به.

وهٰذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل الطويل عندما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان.

فالصفة الأولى للمتَّقين: أنْ يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً.

والغيب هو القنطرة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرحلة البهيمية التي لا تدرك إلا ما تدركه الحواس أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس.

وهـو نقطة التحول في حياة العبد من العبودية لشتى القوى وشتى الأشياء وشتى الاعتبارات إلى عبودية واحدة؛ تحرِّر النفس من كل عبوديَّة، وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس أمام معبود واحد، ثم ترتفع بالنفس فوق كل الاعتبارات وكل الأشياء.

والإيمان بالغيب هو الإقرار الذي يقود إلى اعتقاد جازم ظاهراً وباطناً مقروناً بالخشية.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ**﴾ [الملك: ٦٧].

وقال: ﴿**إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالغَيْبِ**﴾ [يس: ١١].

والقلب الذي يخشى الله بالغيب هو القلب المُنيب: ﴿**مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالغَيْبِ وجَاءَ بِقَلْبٍ مُنيبٍ**﴾ [ق: ٣٣].

وبهٰذا يتبيَّن أن الإيمان بالغيب ـ وهو قطب التوحيد ـ تزكية وطهارة وصـلاح، وهـو صريح في قوله تعالى: ﴿**إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ وأَقَامُوا الصَّلاةَ ومَنْ تَزَكَّى فإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وإِلى اللهِ المَصيرُ**﴾ [فاطر: ١٨].

٢ ـ ﴿وَيُقِيمونَ الصَّلاةَ﴾ :

وإقامة الصلاة : أداؤها بأركانها وواجباتها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، فيتَّجهون بالعبادة لله وحده، ويرتفعون بها عن عبادة العباد وعبادة الأشياء، ويحنون جباههم لله وحده، وهٰكذا تكون قلوبهم موصولة ببديع السماوات والأرض، فيجـدون لحياتهم غاية أعلى من الطين. . . وهٰذا مصدر قوَّة وعزة، كما أنه مصدر تحرج وتقوى، وعامل هامٌّ من عوامل تربية الفرد وتزكية نفسه وجعلها ربَّانيَّة التصور. . . ربَّانية الشعور. . . ربَّانية السلوك. . . ربَّانية التلقِّي .

وإقام الصلاة تزكية كما ورد في آية فاطر الآنفة؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما ورد في سورة العنكبوت آية ٤٥ .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى : ١٤ ـ ١٥] ؛ فقد جعل الله صفة مَن تزكَّى أن يذكر اسم ربِّه فتوجَّه إليه بالصلاة .

وبهٰـذا يتبيَّن لنـا مراد الله في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفحْشاءِ والمُنْكَرِ ولَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وهـو أن ذكـر الله يدعـو إلى إقام الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهو أكبر ناه عن الفحشاء والمنكر؛ لأن فيه حضور القلب وحياته بأسماء الله وصفاته ومراقبة حكمته وعدله في كل عمل وحركة .

٣ ـ ﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقونَ﴾ :

فهم يعترفون بادىء بدء بأن المال الذي في أيديهم لله؛ استخلفهم

فيه؛ ليرى ماذا يصنعون؟

ومن هٰذا الاعتراف انبثق البر بضعاف الخلق، والتضامن بين عيال الله، والشعور بالأخوة فيه.

وهٰكذا تتطهَّرُ النفس من الشح، وتتزكَّى بالبر، فتصير الحياة مجال تعاون لا ميدان تطاحن، فتقف مع العاجز والضَّعيف والقاصر، وتشعرهم أنهم يعيشون بين وجوه مستبشرة ونفوس مطمئنة وقلوب، لا بين أظفار ومخالب ونيوب.

إنها صلة لذوي القربى، فيها تحقيق لمروءة النفس، وكرامة الأسرة، ووشائج القربى، والأسرة هي النواة الأولى للمجتمع المسلم.

وهي لليتامى تكافل بين الكبار والصغار، وبين الأقوياء والضعفاء، وتعويض لهٰؤلاء الصغار عن فقدان حماية ورعاية الأبوين أو أحدهما به، وحماية للأمة من تشرُّد صغارها وتعرُّضهم للفساد وللنقمة على المجتمع الذي لم يقدِّم لهم برّاً ولا رعاية.

وهي للمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون ـ وهم مع ذٰلك ساكتون لا يسألون الناس إلحافاً ضنّاً بماء وجوههم ـ احتفاظ لهم بكرامة نفوسهم، وصيانة لهم من البوار، وإشعار لهم بالتكافل المحيط بالمجتمع المسلم الذي لا يهمل فيه فرد، ولا يضيع فيه عضو.

وهي لابن السبيل ـ المنقطع عن ماله وأهله ـ واجب للنجدة في ساعة العسرة، وانقطاع الطريق دون المال والأهل والديار، وإشعار له بأن المسلمين كلهم أهله، وبأن ديارهم كلها وطنه، يلقى فيه أهلاً بأهل، ومالاً

بمال، وصلة بصلة، وقراراً بقرار.

وهي للسائل إسعاف لعوزهم، وكفٌّ لهم عن المسألة التي يكرهها الله ورسوله. . . ففي الإسلام لا يسأل مَن يجد الكفاية، أو من يجد عملاً، فهو مأمور في دينه أن يعمل ولا يسأل، وأن يقنع ولا يسأل، فلا سائل إلا حيث يعييه المال والعمل.

وهي في الرقاب إعتاق وتحرير لمن أوقعه سوء عمله في الرق بحمل السيف في وجه الإسلام.

وهٰكذا يحقِّق الإنفاق زكاة النفوس، فيعتقها من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة؛ إنه انعتاق الروح من حب المال الذي يقبض الأيدي عن الإنفاق، ويقبض النفوس عن الإشفاق، ويقبض الأرواح عن الانطلاق.

وهٰكذا يبسط العبد يده ونفسه وروحه فيما يحبُّ من المال، لا في الرخيص منه، ولا الخبيث.

﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فيتحرَّر من عبودية الدرهم والدينار، هٰذه العبودية التي تستذل النفوس، وتنكس الرؤوس.

ويتحرَّر من الحرص الذي يذل أعناق الرجال.

والإنفاق يشمل الزكاة والصدقات وسائر ما ينفق في وجوه البر، وإيتاء المال على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ابتغاء وجه الله الأعلى.

وتقرير المبدأ على شموله هو المقصود؛ لأن في المال حقّاً غير الزكاة؛ لأن الإنفاق ليس بديلاً عن الزكاة، وليست الزكاة بديلة منه، وإنما

الزكاة حقٌّ معلوم، والإنفاق تطوُّع طليق، ولهٰذا يشير مولانا البر الرحيم في قوله: ﴿وفي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلومٌ للسَّائلِ والمَحْروم﴾ [الذاريات: ١٩]، وفي قولـه: ﴿والَّـذينَ في أَمْـوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلومٌ . للسَّـائِـلِ والمَحْروم﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٥].

«وكثيراً ما يقـرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال؛ فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكُّل عليه.

والإنفـاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدِّي إليهم، وأولى الناس بذٰلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ﴾، ولهٰذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»[1]، والأحاديث في هٰذا كثيرة»[2] أهـ.

٤ ـ ﴿والَّذينَ يُؤمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِليكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾:

وهٰـذه الصفـة اللائقة بأئمة المتَّقين، وورثة الأنبياء، والمحافظين على ميراثهم، وحداة موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزَّمان.

وقيمة هٰذه الصفة هي الشعور بوحدة الأمة الواحدة، ودينها، ووحدة

---

(١) أخرجه: البخاري (١ / ٤٩ ـ فتح)، ومسلم (١٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»، ابن كثير، (١ / ٤٥).

رسلها، ووحدة معبودها. . .

قيمتهـا الاطمئنـان إلى رعـاية الله للنـاس على تطاول أجيالهم وأحقابهم هذه الرعاية البادية في توالي الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد. . .

قيمتها في الاعتزاز بالهدى الذي تتقلَّب الأيام والأزمان وهو ثابت مطَّرد.

٥ ـ ﴿وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنونَ﴾:

هذه خاتمة الصفات. . . الخاتمة التي تربط المقدمات بالنتائج، والدنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير، والعمل بالجزاء، والتي تشعر العبد أنه ليس مهملاً، وأنه لم يخلق عبثاً، ولن يترك سدى، وأن العدل في انتظاره؛ ليطمئنَّ قلبُه، وتستقرَّ نفسُه، فيفيء إلى العمل الصالح الذي يغذي تقوى الله في نفسه.

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ومن يعيش في الوجود الرحب، بين من يعيش على الأرض ليأكل ويشرب وينام ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء، وبداية تؤول إلى نهاية، وأن الحياة الحقيقية هي وراء هذا الحيز الأرضي المحدود.

وكـل صفـة من هذه الصفات ذات قيمة في حياة العبد والمجتمع المسلم، ومن ثم كانت هي صفات المتَّقين.

وهنـاك تنـاسق بين هذه الصفات جميعاً يؤلف منها وحدة متناسقة

متكاملة، فالتقوى تنبثق عن أعمال البر جميعاً، وهو ما تجده مسطوراً في كتاب الله:

﴿لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ولكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى المالَ على حُبِّهِ ذَوي القُرْبَى واليَتامى والمَساكينَ وابنَ السَّبيلِ والسَّائلينَ وفي الرِّقابِ وأَقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ والمُوفونَ بعَهْدِهِمْ إذا عَاهَدُوا والصَّابرينَ في البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ أُولئكَ الَّذينَ صَدَقُوا وأُولئكَ هُمُ المُتَّقونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

واقرأ بتدبُّر قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بأَنْ تَأْتُوا البُيوتَ مِنْ ظُهورِها ولكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وأْتُوا البُيوتَ مِنْ أَبوابِها واتَّقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وننظر من خلال هذه الآيات إلى تلك الآفاق العاليات التي يريد الله أن يرفع الناس إليها بمنهجه القويم... ثم ننظر إلى الناس وهم ينأون عن هذا المنهج، وينهون عنه، ويرصدون العداوة له ولكل من يدعوهم إليه، ونقلب أيدينا متأسفين، ونردِّد ما قاله الله سبحانه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلى العِبادِ﴾ [يس: ٣٠].

ثم ننظر أخرى، فتنكشف الحسرة عن أمل في الله وثيق، وعلى يقين في هذا المنهج لا يتزعزع، ونستشرف الأيام، فإذا على الأفق أمل... أمل وضيء منير... أن لا بدَّ للنَّاس أن يفيئوا إلى هذا المنهج الرفيع، بعد العناء الطويل، فصبر جميل، والله المستعان.

*** القاعدة الثالثة: معرفة من هو الولي؟**

أولياء الله هم المؤمنون المتَّقون؛ كما قال تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وكانوا يَتَّقونَ**﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

وقد بيَّن الله صفات المتَّقين ـ كما سلف في القاعدة الثانية ـ، ومنه تبيَّن أن التقوى هي: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه.

وقد أخبر النبيُّ ﷺ عن حال أولياء الله وما صاروا بيه أولياء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: مَن عادى لي وليّاً؛ فقد آذنته بالمحاربة، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب مما افترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أحبَّهُ، فإذا أحببتُه؛ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّهُ، ولئن استعاذني لأعيذنَّهُ»[1].

«لما ذكر أن معاداة أوليائه محاربة له؛ ذكر بعد ذلك وصف أوليائه الـذين تحـرم معاداتهم وتجب موالاتهم، فذكر ما يتقرَّب به إليه، وأصل الولاية القرب، وأصل العداوة البعد، فأولياء الله هم الذين يتقرَّبون إليه بما يقـرِّبهم منـه، وأعـداؤه الـذين أبعدهم عنه بأعمالهم المقتضية لطردهم وإبعادهم منه، فقسم أولياءه المقرَّبين إلى قسمين:

أحـدهمـا: من تقـرَّب إليه بأداء الفـرائض، ويشمـل ذلـك فعـل الواجبات، وترك المحرَّمات؛ لأن ذلك كله من فرائض الله التي افترضها

---

(١) أخرجه: البخاري (١١ / ٣٤٠ - ٣٤١ - فتح).

على عباده.

الثاني: مَن تقرَّب إليه بعد الفرائض بالنوافل، فظهر بذلك أنه لا طريق يوصل إلى الله تعالى وولايته ومحبَّته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله، فمن ادَّعى ولاية الله، والتقرُّب إليه، ومحبَّته؛ بغير هذه الطريق؛ تبيَّن أنه كاذب في دعواه:

كما كان المشركون يتقرَّبون إلى الله بعبادة من يعبدونه من دونه كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر: ٣].

وكما حكى عن اليهود والنصارى أنهم قالوا: ﴿**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾ [المائدة: ١٨] مع إصرارهم على تكذيب رسله، وارتكاب نواهيه، وترك فرائضه.

فلذلك ذكر في هذا الحديث أن أولياء الله على درجتين:

أحدهما: المتقرِّبون إليه بأداء الفرائض، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين، وأداء الفرائض أفضل الأعمال، وذلك لأن الله عزَّ وجلَّ إنما افترض على عباده هذه الفرائض ليقرِّبهم منه، ويوجب لهم رضوانه ورحمته.

وأعظم فرائض البدن التي تقرِّب إليه: الصلاة؛ كما قال تعالى: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩]، وقال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد»[1].

---

(١) أخرجه: مسلم (٤٨٢).

ومن الفرائض المقرّبة إلى الله تعالى: عدل الراعي في رعيَّته، سواء كانت رعيَّته عامَّة كالحاكم، أو خاصَّة كعدل آحاد الناس في أهله وولده؛ كما قال ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته»(١).

وفي «صحيح مسلم» عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ؛ قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمٰن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»(٢).

الدرجة الثانية: درجة السابقين المقرَّبين، وهم الذين تقرَّبوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبة الله؛ كما قال: «ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أحبَّه»، فمن أحبه الله؛ رزقه محبَّته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه، والزلفى لديه، والحظوة عنده؛ كما قال تعالى: ﴿**مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٥٤].

ففي هٰذه الآية إشارة إلى أن من أعرض عن حبِّنا وتولَّى عن قربنا؛ لم نبالِ، واستبدلنا به مَن هو أولى بهٰذه المنحة منه وأحق، فمَن أعرض عن الله؛ فما له من الله بدل، ولله منه أبدال.

---

(١) أخرجه: البخاري (٢٠ / ٣٨٠ ـ فتح)، ومسلم (١٨٢٩)؛ من طريق ابن عمر.

(٢) أخرجه: مسلم (١٨٢٧).

مَا لي شُغْـلٌ سواهُ مَا لي شُغْـلُ
مَا يَعْـرِفُ عَنْ هَواهُ قَلْبـي عَذْلُ
ما أصنَعُ إنْ جَفا وخـابَ الأمَـلُ
مِنِّـي بَدَلٌ ومِـنـهُ ما لي بَدَلُ

من فاته الله؛ فلو حصلت له الجنة بحذافيرها؛ لكان مغبوناً، فكيف إذا لم يحصل له إلا نزر يسير حقير من دار كلها لا تعدل جناح بعوضة؟!

مَنْ فاتَـهُ أَنْ يَراكَ يَوْمـاً فَكُـلُّ أَوْقـاتِـهِ فواتُ
وحَـيْثُـمـا كُنْـتُ مِن بلادٍ فَلِي إلـى وَجْـهِـكَ الـتِفـاتُ

ثم ذكر أوصاف الذين يحبُّهم الله ويحبُّونه، فقال:

﴿**أَذِلَّةٍ على المُؤمِنينَ**﴾؛ يعني أنَّهم يعامِلون المؤمنين بالذِّلَّة واللِّين وخفض الجناح.

﴿**أَعِـزَّةٍ عَلى الكَـافِـرينَ**﴾؛ يعني: أنهم يعاملون الكافرين بالعزَّة والشدَّة عليهم، والإغلاظ لهم، فلما أحبُّوا أولياءَه الذين يُحبونه، فعاملوهم بالمحبَّة والرِّقة والرحمة، وأبغضوا أعداءه الذين يُعادونه، فعاملوهم بالشدَّةِ والغِلظة؛ كما قال تعالى: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فإنَّ من تمام المحبَّة مجاهدة أعداء المحبوب، وأيضاً؛ فالجهاد في سبيل الله دعاء للمعرضين عن الله إلى الرجوع إليه بالسَّيف والسِّنان بعد دعائهم إليه بالحجَّة والبرهان، فالمحبُّ لله يُحبُّ اجتلابَ الخلق كلِّهم إلى بابه؛ فمن لم يُجب الدعوة باللين والرِّفق؛ احتاج إلى الدعوة بالشدَّة

والعنف: «عجب ربُّك من قومٍ يُقادون إلى الجنَّة بالسلاسل»[1].

﴿ولا يَخافونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾؛ لا همَّ للمحبِّ غير ما يُرضي حبيبه، رضي من رضي، وسخط من سخط، من خاف الملامة في هوى من يحبُّه؛ فليس بصادق في المحبة.

وقفَ الهوى بي حيثُ أنْتِ فليْسَ لي
مُتَـأَخَّـرٌ عنـهُ ولا مُتَـقَـدَّمُ

أَجِـدُ المَـلامَـةَ في هَواكِ لَذيذةً
حُبّـاً لذِكـرِكِ فليَلُمْـنِـي الـلُّوَّمُ

قوله: ﴿ذلك فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ﴾؛ يعني: درجة الذين يحبهم ويحبونه بأوصافهم المذكورة.

﴿واللهُ واسِعٌ عليمٌ﴾: واسع العطاء، عليم بمن يستحقُّ الفضل فيمنحه، ومن لا يستحقُّه فيمنعه.

فأهل هذه الدرجة من المقرَّبين ليس لهم همٌّ إلا فيما يقرِّبهم ممَّن يحبُّهم ويحبُّونه.

قال بعض السلف: العمل على المخافة قد يُغيِّره الرجاء، والعمل على المحبَّة لا يدخله الفتور.

ومن كلام بعضهم: إذا سئم البطَّالون من بطالتهم؛ فلن يسأم محبُّوك من مناجاتك وذكرك.

---

(١) أخرجه: البخاري (٦ / ١٤٥ - فتح).

وقال بعضهم: المحبُّ لله طائر القلب، كثير الذكر، متسبِّب إلى رضوانه بكلِّ سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دوْباً دوْباً، وشوْقاً وشوْقاً، وأنشد بعضهم:

وكُنْ لِرَبِّكَ ذَا حُبٍّ لتَخْدِمَهُ
إنَّ المُحِبِّينَ للأحْبابِ خُدَّامُ

وأنشد آخر:

ما للمُحِبِّ سوى إرادةِ حِبِّهِ
إنَّ المُحِبَّ بكُلِّ بَرٍّ يَضْرَعُ

ومن أعظم ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من النوافل: كثرة تلاوة القرآن، وسماعُه بتفكُّر وتدبُّر وتفهُّم.

وكان بعضُهم يكثر تلاوة القرآن، ثم اشتغل عنه بغيره، فرأى في المنام قائلاً يقول له:

إنْ كُنْتَ تَزْعُمُ حُبِّي فَلِمَ جَفَوْتَ كِتابي
أما تَأَمَّلْتَ ما فيـ ـهِ مِن لَطيفِ عِتابي

وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكُرني، فإن ذكرني في نفسه؛ ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأ؛ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم»[1].

وفي حديث آخر: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرَّكت بي شفتاه»[2].

---

(١) أخرجه: البخاري (١٣ / ٣٨٤ ـ فتح)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) صحيح، كما بينته في «صحيح الوابل الصَّيِّب» (ص ١٢٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فاذْكُروني أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ولما سمع النبيُّ ﷺ الذين يرفعون أصواتهم بالتَّكبير والتَّهليل وهُم معه في سفر؛ قال لهم: «إنكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائباً؛ إنَّكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم»، وفي رواية: «وهو أقرب إليكم مِن أعناقِ رواحِلِكم»[1].

قوله: «فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها»، وفي بعض الروايات: «وقلبَه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به»؛ المراد بهٰذا الكلام أنَّ مَن اجتهد بالتقرُّب إلى الله بالفرائض، ثم بالنوافل؛ قرَّبه إليه، ورقَّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبدُ الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلىء قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبَّته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنْس به والشوق إليه، حتَّى يصير هٰذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهداً له بعين البصيرة كما قيل:

ساكنٌ في القَلْبِ يَعْمُرُهُ ... لَسْتُ أَنْساهُ فأَذْكُرَهُ
غابَ عَنْ سَمْعِي وعَنْ بَصَرِي ... فَسُويدا القَلْبِ تُبْصِرُهُ

ولا يزال هٰذا الذي في قلوب المحبِّين المقرَّبين يقوى حتَّى تمتلىء قلوبُهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيرُه، ولا تستطيع جوارحُهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم، ومَن كان حالُه هٰذا؛ قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد معرفته ومحبَّته وذكره.

---

(١) أخرجه: البخاري (٦ / ١٣٥ ـ فتح)، ومسلم (٢٧٠٤).

وفي هٰذا يقول بعضهم:

لَيْسَ للنَّــاسِ مَوْضِــعٌ في فُؤادِي
زَادَ فيهِ هَواكَ حتَّــى امــتــلا

وقال آخر:

قَدْ صِيغَ قَلْبِي على مِقــدارِ حُبِّهُمُ
فمَــا لِحُــبِّ سِواهُــمْ فيهِ مُتَّسَــعُ

فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى؛ محا ذٰلك من القلب كلَّ ما سواه، ولم يبق للعبـد شيءٌ من نفسـه وهواه، ولا إرادة إلَّا لما يريدُه منه مولاه، فحينئذ لا ينطقُ العبد إلا بذكره، ولا يتحرَّك إلا بأمره، فإن نطقَ؛ نطق بالله، وإن سمع؛ سمع به، وإن نظرَ؛ نظر به، وإن بطشَ؛ بطش به.

فهٰذا هو المرادُ بقوله: «كنتُ سمعه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها»، ومَن أشار إلى غير هٰذا؛ فإنَّمـا يشير إلى الإلحاد مِن الحلول أو الاتِّحاد، والله ورسولُه بريئان منه.

ومن هناك كان بعضُ السَّلف ـ كسليمان التيمي ـ يرون أنَّه لا يحسن أن يعصي الله.

ووصَّتِ امـرأةٌ مِن السَّلَف أولادهـا، فقالت لهم: تعوَّدوا حبَّ الله وطاعته؛ فإنَّ المتَّقين ألِفوا الطَّاعة، فاستوحشت جوارحُهم من غيرها، فإن عرض لهم الملعون بمعصيةٍ؛ مرَّت المعصيةُ بهم محتشمةً، فهم لها منكرون.

ومن هٰذا المعنى قولُ عليٍّ: إنْ كنَّا لنرى أنَّ شيطان عمر ليهابُه أن يأمُرَه بالخطيئة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أنَّ هٰذا مِن أسرار التوحيد الخاصَّة؛ فإن معنى لا إله إلا الله: أنه لا يؤلَّهُ غيرُه حبّاً ورجاءً وخوفاً وطاعةً، فإذا تحقَّق القلب بالتَّوحيد التامِّ؛ لم يبق فيه محبَّةٌ لغير ما يحبُّه الله، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله، ومن كان كذلك؛ لم تنبعثْ جوارحُه إلا بطاعة الله، وإنَّما تنشأ الذُّنوب من محبَّة ما يكرهه الله، أو كراهة ما يحبُّه الله، وذٰلك ينشأ من تقديم هوى النفس على محبَّة الله وخشيته، وذٰلك يقدحُ في كمال التوحيد الواجب، فيقعُ العبدُ بسبب ذٰلك في التفريط في بعض الواجبات، أو ارتكاب بعض المحظورات، فأمَّا من تحقَّق قلبُه بتوحيدِ الله؛ فلا يبقى له همٌّ إلا في الله وفيما يُرضيه.

وفي هٰذا يقول بعضهم:

قالُوا تَشاغَلَ عَنَّا واصْطَفى بَدَلاً
مِنَّا وذٰلك فعلُ الخائِنِ السَّالي
وكيفَ أَشْغَلُ قَلْبي عَنْ مَحَبَّتِكُمْ
بِغَيْرِ ذِكْرِكُمُ يا كُلَّ أَشْغالي

قوله: «ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»، وفي الرواية الأخرى: «إن دعاني أجبتُه، وإن سألني أعطيتُه»؛ يعني أن هٰذا المحبوب المقرَّب، له عند الله منزلةٌ خاصَّةٌ تقتضي أنه إذا سأل الله شيئاً؛ أعطاه إياه، وإن استعاذ به من شيء؛ أعاذه منه، وإن دعاه؛ أجابه، فيصير مجابَ الدعوة لكرامته على ربه عزَّ وجلَّ.

وقد كان كثيرٌ من السَّلف الصالح معروفاً بإجابة الدَّعوة؛ ففي الصحيح أن الرُّبيِّع بنت النَّضر كسرت ثنيَّة جارية، فطلبوا إليها العفو، فأبوا، فعرضوا الأرش، فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ، وأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النَّضر: أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبيع؟! لا والذي بعثك بالحقِّ لا تُكسر ثنيَّتُها! فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس! أليس كتابُ الله القصاص؟!». فرضي القومُ، فعفوا، فقال رسول الله ﷺ: (إنَّ مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرَّه)[1]» اهـ[2].

* * * * *

(١) اخرجه: البخاري (٥ / ٣٠٦ ـ فتح)، ومسلم (١٦٣٥).

(٢) «إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم» (ص ٥١٩ ـ ٥٢٥).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السابع
أركان التَّقوى

١ ـ الإخلاص.

٢ ـ الاتِّباع.

قال تعالى: ﴿**واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بالحَقِّ إذ قَرَّبَا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قالَ لأَقْتُلَنَّكَ قالَ إنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

هٰكذا في براءة الفطرة ترد الأمر إلى أصله ومحله، وفي إيمان يدرك أسباب القبول، وفي توجيه رفيق يهدي إلى السبيل الذي يؤدي إلى القبول.

وإنما للحصر؛ أي: إنما يتقبَّل الله من اتَّقى الله في فعله لا في غيره.

«وعلى هٰذا تنازع الناس في قوله: ﴿**إنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقينَ**﴾:

فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممَّن اتَّقاه مطلقاً، فلم يأت كبيرة.

وعند المرجئة إنما تقبل ممَّن اتَّقى الشرك، فجعلوا أهل الكبائر

داخلين في اسم (المتَّقين).

وعند أهل السنة والجماعة، يتقبل العمل لمن اتقى الله فيه، فعمله خالصاً لله موافقاً لأمر الله.

فمن اتَّقاه في عمل؛ تقبَّله منه، وإن كان عاصياً في غيره.

ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه، وإن كان مطيعاً في غيره»[1].

«والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان:

أحدهما: أن لا يعبد إلا الله.

الثاني: أن لا يعبده إلا بما أمر وشرع، ولا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع.

قال تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحداً**﴾ [الكهف: ١١١].

وقال تعالى: ﴿**بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وهُو مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ولا خَوْفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿**ومَنْ أَحْسَنُ دِيناً ممَّن أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وهُو مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهيمَ حَنيفاً واتَّخَذَ اللهُ إِبْراهيمَ خَليلاً**﴾ [النساء: ١٢٤].

وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٣٢٢).

ففي **الأولى**: أن لا نعبد إلا إيَّاه.

وفي **الثانية**: أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره.

وقد بيّن لنا ما نعبد لله به، ونهانا عن محدثات الأمور وأخبر أنها ضلالة.

وكما أنَّنا مأمورون أن لا نخاف إلا الله، ولا نتوكَّل إلا على الله، ولا نرغب إلا إلى الله، ولا نستعين إلا بالله، وأن لا تكون عبادتنا إلا الله؛ فكذلك نحن مأمورون أن نتَّبع الرسول، ونطيعه، ونتأسَّى به، فالحلال ما حلَّله، والحرام ما حرَّمه، والدين ما شرعه.

قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللهُ ورَسولُهُ وقَالُوا حَسْبُنا اللهُ سَيُؤتِينا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ورَسولُهُ إنَّا إلى اللهِ راغِبونَ**﴾ [التوبة: ٦٠]، فجعل الإيتاء لله وللرسول؛ كما قال: ﴿**ومَا آتاكُمُ الرَّسولُ فَخُذوهُ ومَا نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧].

وجعل التوكل على الله وحده بقوله: ﴿**وقَالُوا حَسْبُنا اللهُ**﴾، ولم يقل: ورسوله؛ كما قال في وصف الصحابة رضي الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿**الَّذينَ قالَ لَهُمُ النَّاسَ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيْماناً وقالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ومثله قوله: ﴿**يَا أَيُّها النَّبيُّ حَسْبُكَ اللهُ ومَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمِنينَ**﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: حسبك وحسب المؤمنين؛ كما قال: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ**﴾ [الزمر: ٣٦].

ثم قال: ﴿سَيُؤْتِينا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ورَسولُهُ﴾ [التوبة: ٦٠]، فجعل الإيتاء لله وللرسول، وقد ذكر الفضل لله؛ لأن الفضل بيده يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وله الفضل على رسوله وعلى المؤمنين.

وقال: ﴿إِنَّا إِلى اللهِ رَاغِبونَ﴾ [التوبة: ٦٠]، فجعل الرغبة إلى الله وحده؛ كما في قوله: ﴿فإذا فَرَغْتَ فانْصَبْ. وإلى رَبِّكَ فارْغَبْ﴾ [الانشراح: ٧ - ٩].

وقال النبي ﷺ لابن عباس: «إذا سألت؛ فاسأل الله، وإذا استعنت؛ فاستعن بالله»[1].

والقرآن يدلُّ على مثل هٰذا في غير موضع.

فجعل العبادة والخشية والتقوى لله، وجعل الطاعة والمحبَّة لله ورسوله:

كما في قول نوح عليه السلام: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ وأَطِيعونِ﴾ [نوح: ٣].

وقوله: ﴿ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ ويَخْشَى اللهَ ويَتَّقْهِ فأُولٰئكَ هُمُ الفائِزُنَ﴾ [النور: ٥٢].

وأمثال ذٰلك.

فالرسل أمروا بعبادته وحده، والرغبة إليه، والتوكل عليه، وطاعته، والطاعة لهم، فأضلَّ الشيطان النصارى وأشباههم، فأشركوا بالله وعصوا

---

(١) صحيح، كما بينته في «صحيح كتاب الأذكار وضعيفه» (ص ١٢٦١ / ١٠٠٠).

الرسول، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم، فجعلوا يرغبون إليهم، ويتوكلون عليهم، ويسألونهم؛ مع معصيتهم لأمرهم، ومخالفتهم لسنتهم، وهدى الله المؤمنين المخلصين لله، أهل الصراط المستقيم، الذي عرفوا الحقَّ واتَّبعوه، فلم يكونوا من المغضوب عليهم ولا الضَّالين، فأخلصوا دينهم لله، وأسلموا وجوههم له، وأنابوا إلى ربهم، وأحبوه، ورَجوه، وخافوه، وسألوه، ورغبوا إليه، وفوَّضوا أمورهم إليه، وتوكَّلوا عليه، وأطاعوا رسله، وعزَّروهم، ووقَّروهم، وأحبُّوهم، ووالوهم، واتَّبعوهم، واقتفوا آثارهم، واهتدوا بمنارهم.

فالعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، والحسنات هي ما أحبَّه الله ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب.

فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب ولا في صحيح السنة؛ فإنها ـ وإن قالها من قالها، وعمل بها من عمل ـ ليست مشروعة؛ فإن الله لا يحبُّها ولا رسوله، فلا تكون من الحسنات، ولا من العمل الصالح؛ كما أن مَن يعمل ما لا يجوز؛ كالفواحش والظلم، ليس من الحسنات، ولا من العمل الصالح.

وأما قوله: ﴿**ولا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾ [الكهف: ١١١]، وقوله: ﴿**أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ**﴾ [البقرة: ١١٢]؛ فهو إخلاص الدين لله وحده.

وكان عمر بن الخطاب يقول: «اللهمَّ اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

وقال الفُضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك: ٢]؛ قال: «أخلصه وأصوبه». قالوا: يا أبا علي! ما

أخلصه وأصوبه؟ قال: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً؛ لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً؛ لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة».

وذلك هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأوَّلين والآخرين من الرسل، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد ديناً إلا إيَّاه، وهو حقيقة العبادة لرب العالمين.

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا عليه، ويكمله لنا، ويميتنا عليه، وسائر إخواننا المسلمين.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم»[1] أهـ.

٣ ـ العلم:

أكثر الناس لا يعلمون، ولو بدا في الظاهر أنهم علماء، وأنهم يعرفون الكثير؛ لأن علمهم سطحيٌّ يتعلَّق بظواهر الحياة، ولا يسبر غورها؛ ليعرف سننها الثابتة وقوانينها الأصيلة، ويدرك نواميسها الكبرى وارتباطها الوثيق، ثم لا يتجاوزون هٰذا الظاهر، ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه.

وظاهر الحياة محدود مهما بدا للناس واسعاً شاملاً يستغرق جهودهم بعضه، ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة ولو اجتمعوا له.

والحياة كلُّها طرف صغير من ملكوت الله الهائل، الذي تحكمه نواميس مستكِنَّة في كيانه وتركيبه.

---

(١) «العبودية»: شيخ الإسلام ابن تيمية، (ص ٧٤ ـ ٧٦ و ١٧٠ ـ ١٧٤) بتصرف.

والذي لا يتَّصِلُ قلبه بخالق هٰذا الوجود، ولا يشعر بسننه التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً؛ يظلُّ ينظر وكأنه لا يرى، ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة، ولكن لا يدرك حكمته، ولا يعيش بها ومعها، وأكثر الناس كذٰلك.

إن المعرفة الحقَّة تمنح صاحبها صفاء يفتح البصيرة، ويمنح القلب نعمة الرؤية المدرِكة؛ لأنها العلم الحق الذي يدرك الحق، فهو اتصال بالحقائق الثابتة، وليس التقاط للمعلومات المفردة المنقطعة التي تزدحم في الذهن، ولا تمتدُّ وراء الظواهر المحسوسة، فتلد مسخاً من القيم والتصورات.

إن الذي لا يدرك اللبَّ ويعرف، ولا ينتفع بما يرى ويسمع وما يجرب، ولا ينتهي إلى حقائق ثابتة من وراء المشاهدات والتجارب... إنهم جامعو معلومات وليسوا بعلماء.

وقد وصفهم الخبير بهم، فقال: ﴿**ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ. يَعْلَمونَ ظاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلونَ**﴾ [الروم: ٦ - ٧].

وهٰذا العلم المبتوت عن غايته وثمرته أخو الجهل؛ لأنه يتمخَّض عن ركامٍ مشوَّهٍ من السلوك السَّيِّىء.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبغض كلَّ جَعْظَرِيٍّ[1] جَوَّاظٍ[2]،

---

(١) الفظّ الغليظ المتكبّر.

(٢) الجَموع المَنوع.

سَخَّابٍ[1] في الأسواقِ، جيفةٍ[2] بالليل، حمارٍ بالنهار، عالمٍ بأمر الدُّنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة»[3].

واستمع أيها العبد التقي لنبإ هؤلاء القوم قرآناً يُتْلى آناء الليل وأطراف النهار؛ لعلَّك تزداد علماً وتقى.

قال عزَّ شأنُه: ﴿**واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْناهُ آياتِنَا فانْسَلَخَ مِنها فأَتْبَعَهُ الشَّيطانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ . ولَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِها ولٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَواهُ فمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا فاقْصُصِ القَصَصَ لعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . ساءَ مَثَلاً القَوْمُ الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِنا وأَنْفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلِمونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١١٧].

إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه سابغ فضله، ويكسوه حلل العلم، ويمنحه الفرصة الكاملة للارتفاع عن أوحال الأرض، والاتصال بسبب السماء، وسلوك سبيل الهدى، ولكن أبى إلا انسلاخاً... فها هو ينسلخ من آيات الله، ويتجرَّد من لباسه الواقي، فينحرف عن الهدى إلى

---

(١) بالسين المهملة؛ كالصخاب: كثير الضجيج والخصام.

(٢) كالجيفة؛ لأنه يعمل كالحمار طول النهار لدنياه شحّاً وحرصاً، فإذا أقبل الليل؛ ارتمى طوال ليله كالجيفة التي لا تتحرك.

(٣) أخرجه ابن حبان (٧٢)، والبيهقي (١٠ / ١٩٤)؛ من طريق أحمد بن يوسف السُّلمي؛ قال: أخبرنا عبد الرزاق؛ قال: أخبرنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (وذكره).

قلت: وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات؛ غير عبد الله بن سعيد بن أبي هند، وهو الفزاري، فإنه صدوق.

الهوى، فيلتصق بالطين.

إنها وقفة تذكُّر يفرضها هٰذا المثل المضروب في صورة نبإ؛ لأنه يقع كثيراً... وما أكثر ما يتكرَّر هٰذا المثل في حياة البشر! ما أكثر الذين يُعْطَوْن هٰذا الفضل وتلك الفرصة ثم لا يهتدون! إنما يتَّخذون هٰذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به؛ هواهم وهوى الطغاة الذين يملكون لهم - في وهمهم - عرض الحياة الدُّنيا... لذٰلك تراهم يستخدمونه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة، فيخلع على هٰذه الأوحال رداء الدين وعناوينه.

إنه المسخ الذي يقصه الله عزَّ وجلَّ عن صاحب هٰذا النبإ: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِها وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾.

إنهم يلهثون وراء الحطام الذي يملكه الحكام...

والدُّنيا جيفة، وطلَّابها كلاب.

إنه العلم الذي لا يعصم صاحبه أن تثقل به الشهوات والرغبات فترديه، فيخلد إلى الأرض، لا ينطلق من أوحالها وأثقالها وأحمالها... وإنما يُخَدِّم علمَه لهواه، فيتبعه الشيطان، ويلزمه، ويقوده من خطام الهوى.

ولذٰلك؛ فإن العلم ليس بمجرد المعرفة، ولكنه عقيدة دافعة لتحقيق العبودية لله في القلوب والدنيا.

إن العلم النظري السطحي لا ينشىء في الواقع شيئاً؛ لأنه معرفة

باردة لا تعصم من الهوى، ولا ترفع من ثقلة الشهوات، ولا تدفع الشيطان، بل تذلِّل له الطريق وتعبِّدها.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٣ - ٢٤].

وهكذا ترى أيها العبد المنيب أن هؤلاء الفئام من الناس؛ كل ارتباطهم بالدُّنيا والأرض فحسب... وهم عن الآخرة هم غافلون... لأنهم لا يدركون حكمة النشأة، فيغفلون عن الآخرة، ولا يقدِّرونها حقَّ قدرها، ولا يحسبون حسابها، ولا يعملون أن الآخرة نهاية خطِّ المسير وبداية خطِّ المصير؛ لا تتخلَّف ولا تميد.

إن الغفلة عن الدار الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختلُّ وتؤرجح في أيديهم ميزان القيم، فلا يملكون تصوُّراً صحيحاً لأحداث الحياة وقيمها، ويظلُّ علمهم بها ظاهراً سطحيّاً ناقصاً؛ لأن حساب الآخرة في قلب الإنسان يغيِّر نظرته لكل ما يقع في الأرض، فحياتُه في هذه الأرض إن هي إلا مرحلة عابرة من رحلته الطويلة، ونصيبه من الأرض قليلٌ من نصيبه في الآخرة.

ولا ينبغي للمرء أن يبني حكماً على مرحلة قصيرة ونصيب قليل!!

ومن ثم؛ لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها، ولا يمدُّ عينيه إلى ما وراءها.

فلا يلتقيان في تقدير أمر واحد من أمور هٰذه الحياة، ولا قيمة من قيمها الكثيرة.

ولا يتَّفقان في حكم واحد على حادث من الأحداث، أو حالة من الحالات، أو شأن من الشؤون.

فلكل منهما ميزان.

ولكل منهما زاوية للنظر.

ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم.

هٰذا يرى ظاهراً من الحياة الدُّنيا... وهٰذا يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ونواميس تنتظم الظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدُّنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل.

هٰذا هو أفق العلم الوضيء الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه، ويرفعها فيه مكاناً عليّاً.

إن فطرة هٰذا الكون كله توحي بأنه قائم على الحق، ثابت على الناموس، لا يضطرب، ولا تتفرَّق به السبل، ولا يصطدم بعضه ببعض، ولا يسير وفق المصادفة العمياء، ولا الطبيعة الصمَّاء، ولا وفق الهوى المتقلب.

إنه يمضي في نظامه الدَّقيق المحكم المقدَّر تقديراً.

وإن من مقتضيات هٰذا الحق الذي يقوم عليه الوجود أن تكون هناك آخرةٌ يتمُّ فيها الجزاء على العمل، ويَلْقى الخير والشر عاقبتها كاملة؛ إنما

كل ذلك إلى أجله المسمَّى، وفق الحكمة البالغة، وكل أمر يجيء في موعده الذي لا يتخلَّف ولا يستقدم . . .

وإذا لم يعلم البشر متى الساعة؛ فإن هذا ليس معناه أنها لا تكون، ولكن تأجيلها يغري ويخدع الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدُّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

ولذلك؛ فإن الإسلام يقدِّم العلم عقيدة دافعةَ محييةَ موقظةَ رافعة مستعليةً؛ تدفع إلى الإيمان؛ لتحقيق مقتضاها العملي فور استقرارها في القلب، وتحيي القلب، فيخشع لمولاه الحق، ويفيض بحبه، فتستيقظ الجوارح، فترجع إلى فطرتها الأولى، فتسمو الغاية، ويرتفع القصد، فلا تثقله جاذبية الطين، وإلف المكان، ولا يخلد إلى الأرض أبداً.

ويقدم الإسلام العلم منهجاً للنظر والتدبُّر يتميز دون مناهج البشر في النظر؛ لأنه جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم وأخطائها وانحرافاتها تحت لعب الأهواء، وثقلة الشهوات، وإغواء إبليس.

قال الحق جلَّ شأنه: ﴿**سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شهيدٌ . أَلا إِنَّهُمْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحيطٌ**﴾ [فصلت: ٥٣ ـ ٥٤].

إنه وعد من الله لعبيده أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء.

وعد أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبيَّن لهم أنه الحق: هذا الإله الحق، وهذا الدين القيِّم، وهذا الكتاب المجيد، وهذا

الرسول الكريم الذي يقود البشرية خطوةً خطوةً في الطريق الصاعدة قمة الحياة السامقة، وفق ما أراه الله.

وفي أثناء المسير يُبَيِّن للعالمين نظام حياتهم، وأصول شريعتهم، وقواعد تعاملهم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي، ويصوغ عقولهم بقواعد منضطبة في شتى علومهم الكونية والدنيويَّة... وفي نفوسهم حلاوة الإيمان ودفعته، وجدية الشريعة وواقعيتها، واحتياجات دنياهم وتوجيهاتها.

ولقد صدق الله وعده، فكشف لهم عن آياته في الآفاق خلال القرون التي تلت هذا الوعد، وكشف لهم عن آياته في أنفسهم، وما يزال يكشف لهم عن جديد.

وينظر الإنسان، فيرى البشر قد كشفوا كثيراً منذ ذلك الحين؛ فقد تفتَّحت لهم الآفاق، ولم تكن فتوح العلم في أقطار السماوات والأرض بأقل منها في أغوار النفس؛ لقد عرفوا أشياء كثيرة، وما يزال الإنسان في الطريق: ﴿**وقُلِ الحَمْدُ للهِ سَيُريكُمْ آياتِهِ فتَعْرِفونَها ومَا رَبُّكَ بغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلون**﴾ [النحل: ٩٣].

لقد رأوها وقرؤوها وعرفوها... فهل شكروها؟!

إن القراءة في صحائف كتاب الكون المفتوح تورث القلب خشية وخشوعاً؛ كما قرَّره كتاب الله المُنَزَّل على مصطفاه من خلقه محمد ﷺ.

قال العزيز الغفور: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فأَخْرَجْنا بِهِ ثمراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها ومِن الجِبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها**

وغرابيبُ سُودٌ ومِنَ النَّاسِ والدَّوابِّ والأنْعامِ مُخْتلِفٌ أَلْوانُهُ كذلك إنَّما يخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ غفورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

إنها صفحات رائعة متنوِّعة الألوان والأجناس: الثمار المتنوعة الألوان، والجبال الملوَّنة الشعاب، والناس، والدوابّ، والأنعام المتعدِّدة الألوان...

هذه لفتة عجيبة إلى آية من آياته تعالى، وهي اختلاف الألوان: **﴿ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوانِكُمْ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للعالِمينَ﴾** [الروم: ٢٢].

إنها آية كونية عجيبة من الآيات الدالَّة على صدق هذا الكتاب المنزَّل... آية تطوف في الأرض كلها؛ تتتبَّع فيها الألوان والأصباغ في عوالمها المختلفة: الثمرات، والجبال، والناس، والدوابّ، والأنعام، فتَدَعُ القلب مأخوذاً بخلق الله الذي أتقن كل شيء صنعاً، فيخشع لله، ويخضع لمنهاجه الحق الذي فتَحَ هذه الصفحات من كتاب الكون الجميل العجيب التكوين والتلوين وقلَّبها؛ قائلاً: **﴿إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾**.

هذا هو المنهج الإسلاميُّ في صياغة النفوس المسلمة، والحياة الإسلامية...

أما الدراسة النظرية ـ لمجرَّد الدراسة ـ المحجوبة عن غاية العلم وثمرته؛ فهذا هو العلم الذي ليس بعلم؛ لأنه لا يعصم من ثقلة الطين، ودفعة الهوى، وإغواء الشيطان، ولا يقدِّم للبشرية خيراً، ومَن استقرأ حياة

الكفار الذين خدعهم بريق المدنيَّة الماديَّة؛ يرى ما نرى، وهو ما قرَّره الله سبحانه في كتابه، وأشار إليه رسوله ﷺ في سنته الصحيحة.

ولـذلك؛ فليتَّق الله رجالٌ من هذه الأمة يتكلَّمون بلسانها، وتولَّوْا أمرها في سياسة التعليم؛ حجبوا مناهج التعليم العلميَّة عن الثمرة المرجوَّة منها في تعميق الإيمان بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، وزعموا أن هدف البحث العلميِّ هو إكساب الطالب قدرةً على تفسير الظواهر العلمية فحسب، ولـذلك نشأ جيلٌ ممسوخٌ، لا هم بعلم الدنيا برزوا، ولا لخير الآخرة أحرزوا.

ولذلك؛ فلا بدَّ من إقصاء هذا المنهج الشيطاني في تدريس الموادِّ العلمية، وإعادة المنهج الرَّبَّاني؛ لتحيا القلوب وهي تنظر إلى بديع صنع الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

﴿ولِيَعْلَمَ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فيُؤمِنُوا بِهِ فَتخْبِتَ لهُ قلوبُهُمْ وإنَّ اللهَ لَهادِ الَّذينَ آمَنُوا إلى صِراطٍ مُستقيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وقابلت جامعي المعلومات الذين حجبوا المعرفة عن ثمارها ولازمها طوائف المتصوفة حيث ادَّعت أن تقوى الله وخشيته تورث في القلب علما ومعرفة، فلا داعي لطلب العلم والنَّصب في تحصيله.

واستـدلُّوا على مقالتهم بآيات صرفوها عن معانيها الصَّحيحة التي بيَّنهـا الله ورسـولـه؛ من ذلك قوله تعالى: **﴿واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾** [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: **﴿وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾** [الكهف: ٦٥]، فنعـوذ بالله من هذا التخليط، والتحكُّم في العلم، واختيار ما لم يختره

رسول الله ﷺ، ولم ينقل عن أحد من سلف الأمة.

وقبل بيان تداعي استدلالهم لا بدَّ من بيان سوءة قولهم؛ فإنهم كمن قيل فيهم من ثمارهم تعرفونهم.

«اعلم أن أوَّل تلبيسِ إبليس على الناس صدُّهم عن العلم؛ لأن العلم نورٌ، فإذا أطفأ مصابيحَهم؛ خبَّطهم في الظلم كيف شاء.

وقد دخل على الصوفية في هذا الفنِّ من أبواب:

أحدها: أنه منع جمهورهم من العلم أصلاً، وأراهم أنَّه يحتاج إلى تعبٍ وكلف، فحسَّن عندَهم الراحة، فلبسوا المراقع، وجلسوا على بساط البطالة.

عن الشافعي رضي الله عنه؛ قال: أسِّس التصوُّف على الكسل.

وبيان ما قاله الشافعي أن مقصود النفس: إما الولايات، وإما استجلاب الدنيا، واستجلاب الدُّنيا بالعلوم يطول، ويتعِب البدن، وهل يحصَّلُ المقصود أو لا يحصَّل؟! والصوفية قد تعجَّلوا الولايات ـ فإنهم يرون بعين الزهد ـ واستجلابَ الدنيا؛ فإنها إليهم سريعة.

والثاني: أنه قنع قومٌ منهم باليسير منه، ففاتهم الفضل الكثير في كثرتِه، فاقتنعوا بأطراف الأحاديث، وأوهمهم أن علو الإسناد والجلوس للحديث كلّه رياسة ودنيا، وأن للنفس في ذلك لذَّة

وكشف هذا التلبيس أنه ما من مقام عال إلا وله فضيلة وفيه مخاطرة؛ فإن الإمارة والقضاء والفتوى كله مخاطرة، وللنفس فيه لذَّة، ولكن فضيلته

عظيمة؛ كالشوك في جوار الورد، فينبغي أن تطلب الفضائل، ويتَّقى ما في ضمنها من الآفات.

فأمـا ما في الطبع من حبِّ الرياسة؛ فإنه إنما وضع لتُجتَلَب هٰذه الفضيلة؛ كمـا وضع حبُّ النكاح ليحصَل الولد، وبالعلم يتقوَّم به قصد العالم؛ كما قال يزيد بن هارون: طلَبنا العلم لغير الله، فأبى إلا أن يكون لله. ومعناه: أنه دلَّنا على الإخلاص، ومَن طالب نفسه بقطع ما في طبعه لم يمكنه.

والثـالث: أنـه أوهم قوماً منهم أن المقصود العمل، وما فهموا أنَّ التشاغل بالعلم من أوفى الأعمال، ثم إن العالم وإن قصُر سير علمه؛ فإنه على الجادَّة، والعابد بغير علم على غير الطريق.

والرَّابع: أنه أرى خلقاً كثيراً منهم أن العالم ما اكتسب من البواطن، حتى إن أحدهم يتخايل له وسوسةً، فيقول: حدَّثني قلبي عن ربي!

وكان الشِّبلي يقول:

إذا طالَـبـونـي بِعِـلْمِ الـوَرَقْ
بَرَزْتُ عليهِـمْ بِعِـلْمِ الـخِـرَقْ

وقد سمَّوا علم الشريعة علم الظاهر، وسمَّوا هواجس النفوس العلم الباطن، واحتجُّوا له بما رواه عليُّ بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه قال: «علم الباطن سرٌّ من سرِّ الله عزَّ وجلَّ، وحكمٌ من أحكام الله تعالى، يقذفه الله عزَّ وجلَّ في قلوب من يشاء من أوليائه».

وهٰذا حديث لا أصل له عن النبيِّ ﷺ، وفي إسناده مجاهيل، لا

يُعْرَفون[1].

وعن أبي موسى؛ قال: كان في ناحية أبي يزيد رجل فقيه عالم تلك الناحية، فقصد أبا يزيد، وقال له: قد حُكي لي عنك عجائب!

فقال أبو يزيد: وما لم تسمع من عجائبي أكثر.

فقال له: علمكُ هٰذا يا أبا يزيد عمَّن؟ ومن أين؟ وممَّن؟

فقال أبو يزيد: علمي من عطاء الله تعالى، ومن حيث قال ﷺ: «من عمل بما يعلم؛ ورَّثه الله علمَ ما لم يعلم»[2]، ومن حيث قال ﷺ: «العلم علمان: علمٌ ظاهر، وهو حجة الله تعالى على خلقه، وعلم باطن، وهو العلم النافع»[3]، وعلمك يا شيخ نقل من لسان عن لسان التعليم، وعلمي

---

(١) أخرجه: ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١ / ٨٣)، وقال:
«لا يصح»، وعامة رواته لا يُعرفون».
ونقل ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١ / ٢٨٠) عن الذهبي في «تلخيص الواهيات» قوله: «هذا باطل».
وذكره شيخنا ـ حفظه الله ـ في «السلسلة الضعيفة» (١٢٢٧) جازماً بوضعه.

(٢) هو في «حلية الأولياء» (١٠ / ١٤ ـ ١٥) لأبي نعيم بإسناده، ثم قال:
«ذكر أحمد بن حنبلٍ هذا الكلام عن بعض التابعين، عن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ، فوهم بعضُ الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ، فوضع هذا الإسناد عليه؛ لسهولته وقربه، هذا الحديث لا يُحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل».
قال شيخنا في «الضعيفة» (٤٢٢):
«وفي الطريق إليه جماعة لم أعرفهم، فلا أدري مَن وضعَهُ منهم».

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه: ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١ / ٨٢ و ٨٣)، ولا يصح مرفوعاً ولا موقوفاً ولا مقطوعاً كما بينته في «الخشوع وأثره في بناء الأمة» (ص ٩٣ ـ ٩٥).

من الله إلهامٌ من عنده.

فقال له الشيخ: علمي عن الثقات عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن ربه عز وجل.

فقال له أبو يزيد: يا شيخ! كان للنبي ﷺ علم عن الله لم يطَّلع عليه جبريل ولا ميكائيل.

قال: نعم، ولكن أريد أن يصحَّ لي علمك الذي تقول هو من عند الله.

قال: نعم؛ أبيِّنه لك قدر ما يستقرُّ في قلبك معرفته.

ثم قال: يا شيخ! علمت أن الله تعالى كلَّم موسى تكليماً وكلَّم محمداً ورآه كفاحاً[1] وأنَّ حلم الأنبياء وحي!

قال: نعم.

قال: أما علمت أن كلام الصدِّيقين والأولياء بإلهام منه، وفوائده من قلوبهم، حتى أنطقهم بالحكمة، ونفع بهم الأمة، ومما يؤكد ما قلت: ما ألهم الله تعالى أم موسى أن تُلقي موسى في التابوت فألقته، وألهم الخضر في السفينة والغلام والحائط، وقوله لموسى: ﴿**ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْري**﴾ [الكهف: ٨٢].

---

(١) أي: مُواجهة. ولا يصحُّ هذا.

قالت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ:

«من حدَّثكم أن محمداً قد رأى ربَّه؛ فقد أعظم على الله الفِرْيَةَ».

رواه: البخاري (٨ / ٦٠٦ ـ فتح)، ومسلم (١٥٧).

ويُروى أن بعضهم حضر مجلس أبي يزيد والناس يقولون: فلان لقي فلاناً وأخذ من علمه وكتب منه الكثير، وفلان لقي فلاناً، فقال أبو يزيد: مساكين! أخذوا علمهم ميِّتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

قلت: هٰذا الفقه في الحكاية الأولى من قلة العلم، إذ لو كان عالماً؛ لعلم أن الإلهام للشيء لا ينافي العلم، ولا يُتَّسَع به عنه، ولا يُنْكَر أن الله عز وجل يلهِم الإنسان الشيء؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «إن في الأمم محدَّثين، وإن يكن في أمَّتي؛ فعمر»[1].

والمراد بالتحديث إلهام الخير، إلا أن الملهَم لو أُلهِم ما يخالف العلم؛ لم يجز له أن يعمل عليه، وإلهامه حينئذ شيطانيٌّ لا رحمانيٌّ!

وأما الخضر؛ فالراجح أنه نبيٌّ[2]، ولا ينكر للأنبياء الاطلاع بالوحي على العواقب.

وليس الإلهام في العلم في شيء، إنما هو ثمرة العلم والتقوى، فيوفَّق صاحبهما للخير، ويلهَم الرشد.

فأما أن يترك العلم، ويقول: إنه يعتمد على الإلهام والخواطر؛ فليس هٰذا بشيء، إذ لولا العلم النقليُّ؛ ما عرفنا ما يقع في النفس: أمن الإلهام للخير؟ أو الوسوسة من الشيطان؟

---

(١) حديث صحيح، كما بينته في كتابي «بصائر وعبر من أقوال الفاروق عمر»، نشر دار ابن الجوزي ـ الدمام.

(٢) وهذا هو الصواب الذي لا محيد عنه؛ كما فصَّله الحافظ ابن حجر في «الزَّهْر النَّضْر».

واعلم أن العلم الإلهـامي الملقى في القلوب لا يكفي عن العلم المنقول؛ كما أن العلوم العقليَّة لا تكفي عن العلوم الشرعيَّة، فإن العقليَّة كالأغذية، والشرعية كالأدوية، ولا ينوب هٰذا عن هٰذا.

وأما قوله: «أخذوا علمهم ميتاً عن ميت»؛ أصلح ما يُنسب إليه هٰذا القائل أنه ما يدري ما في ضمن هٰذا القول، وإلا؛ فهٰذا طعن في الشريعة.

قال أبـو حفص بن شاهين: من الصوفية من رأى الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: نحن علومُنا بلا واسطة.

قال: وما كان المتقدِّمون في التصوُّف إلا رؤوساً في القرآن والفقه والحديث والتفسير، ولكنَّ هٰؤلاء أحبُّوا البطالة.

وقال أبو حامد الطوسي: اعلم أن ميل أهل التصوُّف إلى الإلٰهية دون التعليمية، ولذٰلك لم يتعلَّموا ولم يحرِصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفـه المصنفون، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدات بمحو الصفات المـذمـومة، وقطع العلائقة كلِّها، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمَّة، وذٰلك بأن يقطع الإنسان همَّه عن الأهل والمال والولد والعلم، ويخلو بنفسه في زاوية، ويقتصر على الفرائض والرواتب، ولا يقرن همَّه بقراءة قرآن، ولا بالتـأمُّل في نفسه، ولا يكتب حديثه ولا غيره، ولا يزال يقول: الله، الله، الله[1]... إلى أن ينتهي إلى حال يترك تحريك اللسان، ثم يمحي عن القلب صورة اللفظ!!

---

(١) والـذِّكـر بالاسم المفرد هكذا مبْتَدَعٌ، لم يعرفه علماء الأمة وصالحوها؛ كما شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه المستطاب: «العبودية» (ص ١٥٨ ـ ١٥٩).

عزيزٌ عليَّ أن يصدر هٰذا الكلام من فقيه؛ فإنه لا يخفى قبحُه؛ فإنه على الحقيقة طيٌّ لبساط الشريعة التي حثَّت على تلاوة القرآن وطلب العلم.

وعلى هٰذا المـذهب رأيت الفضلاء من علماء الأمصار؛ فإنهم ما سلكوا هٰذه الطريق، وإنما تشاغلوا بالعلم أولاً.

وعلى ما قد رتَّب أبـو حامد تخلو النفس بوساوسها وخبالاتها، ولا يكون عندها من العلم ما يطرُد ذٰلك، فيلعب بها إبليس أيَّ ملعب، فيريها الوسوسة محادثة ومناجاة.

ولا ننكر أنه إذا طهُر القلب؛ انصبَّت عليه أنوار الهُدى، فينظر بنور الله[1]؛ إلا أنه ينبغي أن يكون تطهيرُه بمقتضى العلم لا بما ينافيه؛ فإن الجوع الشديد، والسهر، وتضييع الزمان في التخيُّلات: أمور ينهى الشرع عنها، فلا يستفاد من صاحب الشرع شيء ينسب إلى ما نهى عنه.

ثم لا تنافي بين العلم والرياضة[2]، بل العلم يعلِّم كيفية الرياضية، ويعين على تصحيحها.

وإنما تلاعب الشيطان بأقوام أبعدوا العلم، وأقبلوا على الرياضة بما ينهى عنه العلم، والعلم بعيد عنهم، فتارة يفعلون الفعل المنهيَّ عنه، وتارة يؤثرون ما غيره أولى منه.

---

(١) أي: يُلْهم الخير.

أما ما يُروى: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»؛ فلا يصحُّ بوجه.

(٢) أي: المجاهدة، وقد مضى بيانها.

وإنما كان يُفتي في هٰذه الحوادث العلم، وقد عزلوه، فنعوذ بالله من الخذلان.

وعن أبي عليٍّ البنـاء؛ قال: كان عنـدنا بسوق السلاح رجل كان يقـول: القـرآن حجاب، والرسول حجاب، ليس إلا عبدٌ وربٌّ، فافتُتن جماعة به، فأهملوا العبادات، واختفى مخافة القتل!

وعن ضرار بن عمرو؛ قال: إن قوماً تركوا العلم ومجالسة أهل العلم، واتَّخـذوا محاريب، فصلَّوْا وصاموا حتى يبس جلدُ أحدهم على عظمه، وخالفوا السنَّة، فهلكوا، فوالله الذي لا إلٰه غيره؛ ما عمل عاملٌ قطُّ على جهل إلا كان ما يفسِد أكثر مما يصلح.

وقد فرَّق كثير من الصوفية بين الشريعة والحقيقة[1]، وهٰذا جهل من قائله؛ لأن الشـريعـة كلهـا حقـائق، فإن كانـوا يريدون بذٰلـك الرخصة والعزيمة؛ فكلاهما شريعة.

وقد أنكر عليهم جماعة من قدمائهم في إعراضهم عن ظواهر الشرع:

عن أبي الحسن بن سالم؛ قال: جاء رجل إلى سهل بن عبدالله وبيده محبرة وكتاب، فقال لسهل: جئتُ أن أكتب شيئاً ينفعني الله به. فقال: اكتب، إن استطعت أن تلقى الله وبيدك المحبرة والكتاب؛ فافعل! قال: يا أبا محمد! أفِدْني فائدة. قال: الدُّنيا كلها جهل؛ إلا ما كان علماً،

---

(١) وهذا كقول بعض الجماعات الإسلامية عن نفسها «حقيقة صوفية» (!).
ولفظ: «الحقيقة» عند القوم له رموزُه وأسرارُه وشاراته، فتنبَّه.

والعلم كلُّه جهل؛ إلا ما كان عملاً، والعمل كله موقوف؛ إلا ما كان منه على الكتاب والسنَّة، وتقوم السنة على التقوى.

وعن سهل بن عبدالله: أنه قال: احفَظوا السواد على البياض، فما أحدٌ تركَ الظاهر؛ إلا تزندق.

وعن سهل بن عبدالله: أنه قال: ما من طريق إلى الله أفضل من العلم، فإن عدلتَ عن طريق العلم خطوة؛ تهت في الظلام أربعين صباحاً.

وعن أبي بكر الدقاق؛ قال: سمعتُ أبا سعيد الخرَّاز يقول: كل باطن يخالف ظاهراً فهو باطل.

وقد نبَّه على هٰذا الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب «الإحياء» قائلاً: مَن قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يخالف الظاهر؛ فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان.

وقال ابن عقيل: جعلت الصوفية الشريعة اسماً، وقالوا: المراد منها الحقيقة.

قال: وهٰذا قبيح؛ لأن الشريعة وضعها الحق لمصالح الخلق وتعبُّداتهم، فما الحقيقة بعد هٰذا سوى شيءٍ واقع في النفس من إلقاء الشياطين.

وكلُّ من رام الحقيقة في غير الشريعة؛ فمغرور مخدوع.

قد كان جماعةٌ منهم تشاغلوا بكتابة العلم، ثم لبَّس عليهم إبليس، وقال: ما المقصود إلا العمل، ودفنوا كتبهم.

فقد رُوِي أن أحمد بن أبي الحواري رمى كتبه في البحر، وقال: نعمَ الدليل كنت، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محالٌ.

ولقد طلب أحمد بن أبي الحواري الحديث ثلاثين سنةً، فلما بلغ منه الغاية؛ حمل كتبه إلى البحر، فغرَّقها، وقال: يا علم! لم أفعل بك هٰذا تهاوناً، ولا استخفافاً بحقِّك، ولكني كنت طلبُك لأهتدي بك إلى ربِّي، فلما اهتديت بك؛ استغنيت عنك.

وعن أبي نصر الطوسي؛ قال: سمعتُ جماعةً من مشايخ الريِّ يقولون: ورث أبو عبدالله المقري عن أبيه خمسين ألف دينار سوى الضياع والعقار، فخرج عن جميع ذٰلك، وأنفقها على الفقراء.

قال: فسألت أبا عبدالله عن ذٰلك، فقال: أحرمتُ وأنا غلام، وخرجت إلى مكة على الوحدة حين لم يبق لي شيء أرجع إليه، وكان اجتهادي أن أزهد في الكتب وما جمعتُ من العلم والحديث أشد عليَّ من الخروج إلى مكة، والتقطع في الأسفار، والخروج عن ملكي!

قلتُ: قد سبق القول بأن العلم نور، وأن إبليس يحسِّن للإنسان إطفاء النور؛ ليتمكن منه في الظلمة، ولا ظلمة كظلمة الجهل.

ولما خاف إبليس أن يعاود هٰؤلاء مطالعة الكتب، فربَّما استدلوا بذٰلك على مكايده؛ حسن لهم دفن الكتب، وإتلافها، وهٰذا فعلٌ قبيح محظور، وجهل بالمقصود بالكتب.

وبيان هٰذا أن أصل العلوم القرآن والسنة، فلما علم بالشرع أن حفظهما يصعب؛ أُمر بكتابة المصحف، وكتابة الحديث.

فأمـــا القـرآن؛ فإن رسـول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية؛ دعـا بالكاتب، فأثبتها، وكانوا يكتبونها في العُسُب[1] والحجارة وعظام الكتف، ثم جمع القرآن بعده في المصحف أبو بكر صوناً عليه، ثم نسخ من ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه وبقية الصحابة، وكل ذلك لحفظ القرآن؛ لئلا يشذَّ منه شيء[2].

وأمـا السنَّـة؛ فإن النبي ﷺ قصـر النـاس في بداية الإسلام على القرآن، وقال: «لا تكتبوا عنِّي سوى القرآن»[3].

فلما كثرت الأحاديث، ورأى قلَّة ضبطهم؛ أذن لهم في الكتابة.

فروي[4] عن أبي هُريرة رضي الله عنه أنه شكى إلى رسول الله ﷺ قلَّة الحفظ، فقال: «ابسُط رداءك»، فبسط رداءه، وحدَّثه النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: «ضمَّه إليك»، فقال أبو هريرة: فلما أنس بعد ذلك شيئاً مما حدَّثنيه رسول الله ﷺ.

وروى عنه ﷺ عبدالله بن عمرو: أنه قال: «قيِّدوا العلم»، فقلتُ: يا رسول الله! وما تقييدُه؟ قال: «الكتابة»[5].

---

(١) مفردها عَسيب، وهي جريدةٌ من النخل، كُشِطَ خوصُها.

(٢) ويُراجع كتاب «تاريخ المصحف الشريف» للشيخ عبد الفتح القاضي ـ رحمه الله ـ.

(٣) رواه: مسلم (٣٠٠٤) عن أبي سعيد الخُدري.

(٤) رواه: البخاري (١ / ٢١٥ ـ فتح)، ومسلم (٢٠٩٨).

فتصديره بصيغة التمريض فيه ما فيه؛ إلا إذا أراد اختصار السند؛ كما يُلاحظ أحياناً عن بعض قدماء أهل الحديث.

(٥) حديث حسن بشواهِدِه وطرقه. =

قال المصنِّف: واعلم أن الصحابة ضبطت ألفاظ رسول الله ﷺ وحركاتِه وأفعاله، واجتمعت الشريعة من رواية هذا ورواية هذا.

وقد قال رسول الله ﷺ: «بلِّغوا عنِّي»[1].

وقال: «نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعها»[2]

وتأدية الحديث كما يسمع لا يكاد يحصل إلا من الكتابة؛ لأن الحفظ خوَّان.

وقد كان أحمد بن حنبل رضي الله عنه يحدِّث بالحديث، فيقال له: أملِه علينا. فيقول: لا؛ بل من الكتاب.

وقد قال علي بن المديني: أمرني سيِّدي أحمد بن حنبل أن لا أحدِّث إلا من الكتاب.

فإذا كانت الصحابة قد روت السنة، وتلقَّتها التابعون، وسافر المحدِّثون، وقطعوا شرق الأرض وغربها؛ لتحصيل كلمة من ها هنا وكلمة من هنا، وصحَّحوا ما صحَّ، وزيَّفوا ما لم يصحَّ[3]، وجرحوا الرواة، وعدَّلوا،

= وقد فصل الكلام عليه شيخُنا العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (رقم ٢٠٢٦)، فراجِعْهُ.

(١) رواه البخاري (٦ / ٤٩٦ - فتح). عن ابن عمْرو.

(٢) حديث صحيح متواتر مرويٌّ عن بضعة وعشرين صحابياً.

وانظر كتابي «الأدلة والشواهد» (ص ٣٥)، و«الرد العلمي» (١ / ٧٣) بقلمي؛ مشاركة مع أخي علي حسن عبد الحميد.

(٣) وهذه هي الثمرة الأساسية من علم مصطلح الحديث وقواعده، فمن يُغفل هذا مُفرغاً جُهده بالعَزْو وذِكر الكتب؛ كان كمن اشتغل بالفرع، وتشاغل عن الأصل، فتنبَّه، ولا تَغْرُرْك كثرةُ الحواشي.

وهذّبوا السنن، وصنَّفوا، ثم [يأتي] من يغسل[1] ذلك، فيضيِّع التعب، ولا يعرف حكم الله في حادثة؛ فما عُوندت الشريعة بمثل هٰذا، فهل لشريعة من الشرائع قبلنا إسنادٌ إلى نبيهم، وإنما هٰذه خصيصة لهٰذه الأمة.

وقد رُوِّينا عن الإمام أحمد بن حنبل مع كونه طاف المشرق والمغرب في طلب الحديث: أنه قال لابنه: ما كتبتَ عن فلان؟ فذكر له: «أن النبي ﷺ كان يخرُج يوم العيد من طريق ويرجِع من أخرى»[2]، فقال الإمام أحمد ابن حنبل: إنا لله! سنَّة من سنن رسول الله ﷺ لم تبلغني!

وهٰذا قوله مع إكثاره وجمعه، فكيف بمَن لم يكتب؟! وإذا كتب غسل!!

أفتَرى إذا غُسلت الكتب ودُفنت؛ علام يُعتمد في الفتاوى والحوادث؟! على فلان الزاهد! أو فلان الصوفي! أو على الخواطر فيما يقع لها! نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى.

ولا تخلو هٰذه الكتب التي دفنوها أن يكون فيها حقٌّ أو باطل، أو قد اختلط فيها الحق بالباطل:

فإن كان فيها باطلٌ؛ فلا لوم على مَن دفنها.

وإن كان قد اختلط الحق بالباطل، ولم يمكن تمييزُه؛ كان عذراً في إتلافها؛ فإن أقواماً كتبوا عن ثقات وعن كذَّابين، واختلط الأمر عليهم، فدفنوا كتبهم، وعلى هٰذا يُحْمَل ما يُروى عن دفن الكتب عن سفيان

---

(١) أي: يمحوه، ويُذهبه.

(٢) رواه ـ بنحوه ـ البخاري (٢ / ٤٧٢ ـ فتح) عن جابر رضي الله عنه.

الثوري.

وإن كان فيها الحق والشرع؛ فلا يحل إتلافها بوجه؛ لكونها ضابطةً علماً وأموالاً، وليسأل من يقصد إتلافها عن مقصوده.

فإن قال: تشغلني عن العبادة! قيل له: جوابك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنك لو فهمت؛ لعلمتَ أنَّ التشاغل بالعلم أوفى[1] العبادات.

والثاني: أن اليقظة التي وقعت لك لا تدوم، فكأني بك وقد ندمت على ما فعلتَ بعد الفوات.

واعلم أن القلوب لا تبقى على صفائها، بل تصدأ، فتحتاج إلى جلاء، وجلاؤها النظر في كتب العلم.

وقد كان يوسف بن أسباط دفن كتبه، ثم لم يصبر على التحديث، فحدَّث من حفظه، فخلَّط[2].

والثالث: أننا نقدِّر تمام يقظتك ودوامها، والغنى عن هٰذه الكتب، فهلاَّ وهبتها لمبتدىء من الطُّلاَّب ممَّن لم يصل إلى مقامك، أو وقفتَها على المنتفعين بها، أو بعتها وتصدَّقت بثمنها، أما إتلافها؛ فلا يحلُّ بحال.

وقد روى المروزيُّ عن أحمد بن حنبل: أنه سئل عن رجل أوصى أن تدفَن كتُبُه؟ فقال: ما يعجبني أن يدفن العلم.

---

(١) أي: أتمّ وأكمل.

(٢) «تهذيب التهذيب» (١١ / ٤٠٨).

وعنه قال: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: لا أعرف لدفن الكتب معنىً.

لمَّا انقسم الصوفية بين متكاسل عن طلب العلم وبين ظانٍّ أن العلم هو ما يقع في النفوس من ثمرات التعبُّد، وسمَّوا ذلك العلم: العلم الباطن؛ نهو عن التشاغل بالعلم الظاهر.

عن جعفرٍ الخُلديِّ قال: لو تركني الصوفيَّةُ؛ لجئتكم بإسناد الدنيا، لقد مضيتُ إلى عباس الدُّوري وأنا حدث، فكتبت عنه مجلساً واحداً، وخرجت من عنده، فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية، فقال: أيش هذا معك؟ فأريتُه إياه، فقال: ويحك! تدع علم الخرق وتأخذ علم الورق! ثم خرق الأوراق، فدخل كلامُه في قلبي، فلم أعد إلى عباس!!

قلتُ: وبلغني عن أبي سعيد الكنديِّ قال: كنتُ أنزل رباط الصوفيَّة، وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون، فسقطتِ الدواة يوماً من كمِّي، فقال لي بعض الصوفية: استر عورتك!

وعن الحسين بن أحمد الصفَّار؛ قال: كان بيدي محبرة، فقال لي الشِّبْلي: غيِّب سوادك عني، يكفيني سواد قلبي.

قال المصنف: من أكبر المعاندة لله عزَّ وجلَّ الصدُّ عن سبيل الله، وأوضح سبيل الله العلم؛ لأنه دليل على الله، وبيان لأحكام الله وشرعه، وإيضاحٌ لما يحبُّه ويكرهه، فالمنع منه معاداة لله ولشرعه، ولكنَّ الناهين عن ذلك ما تفطّنوا لما فعلوا.

وعن أبي عبدالله بن خفيف؛ قال: اشتغلوا بتعلُّم العلم، ولا يغرَّنَّكم

كلام الصوفية؛ فإني كنت أخبِّىء محبرتي في جيب مرقَّعتي، والكاغد في حزَّة سروالي، وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي؛ خاصموني، وقالوا: لا تُفلح. ثمَّ احتاجوا إليَّ بعد ذلك.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم، فيقول: هٰذه سُرج الإسلام.

وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنِّه، فقال له رجلٌ: إلى متى يا أبا عبدالله؟! فقال: المحبرة إلى المقبرة.

وقال في قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة من أمَّتي منصورين لا يضرُّهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»[1]، فقال أحمد: إن لم يكونوا أصحاب الحديث؛ فلا أدري مَن هم.

وقيل له: إن رجلاً قال في أصحاب الحديث: إنهم كانوا قوم سوء. فقال أحمد: هو زنديق[2].

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: إذا رأيتُ رجلاً من أصحاب الحديث؛ فكأني رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ.

اعلم أن هٰؤلاء القوم لما تركوا العلم، وانفردوا بالرياضات على مقتضى آرائهم؛ لم يصبروا على الكلام في العلوم، فتكلَّموا بواقعاتهم، فوقعت الأغاليط القبيحة منهم، فتارة يتكلَّمون في تفسير القرآن، وتارة في

---

(١) حديث متواتر كما بينته في «اللآلىء المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة».

(٢) انظره مخرجاً في «الرد العلمي» (٢ / ٣٦) بقلمي مشاركة مع أخي علي حسن عبدالحميد.

الحديث، وتارة في الفقه، وغير ذلك، ويسوقون العلوم إلى مقتضى علمهم الذي انفردوا به، والله سبحانه لا يخلي الزمان من أقوام قوَّام بشرعه، يردُّون على المتخرِّصين، ويبيِّنون غلط الغالطين.

فهذه نبذة من كلام القوم وفقههم، نبَّهت على علمهم، وسوء فهمهم، وكثرة خطئهم!

واعلم أن العلم يورث الخوف، واحتقار النفس، وطول الصمت، وإذا اعتبرتَ علماء السلف؛ رأيت الخوف غالباً عليهم، والدعاوى بعيدة عنهم:

كما قال عمر عند موته: الويل لعمر إن لم يُغْفَر له.

وقال ابن مسعود: ليتني إذا متُّ لا أُبعث.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ليتني كنتُ نسياً منسيّاً.

وقال سُفيان الثوري لحمَّاد بن سلمة عند الموت: ترجو أن يُغفر لمثلي؟

وإنَّما صدر مثل هذا عن هؤلاء السادة؛ لقوَّة علمهم بالله، وقوَّة العلم به تورِث الخوف والخشية.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلماءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال ﷺ: «أنا أعرفُكم بالله، وأشدُّكم له خشيةً»[1].

---

(١) رواه البخاري (١٠ / ٥١٣، ١٣ / ٢٧٦ ـ فتح)، ومسلم (٢٣٥٦).

ولمَّا بعد عن العلم أقوامٌ من الصوفيَّة؛ لاحظوا أعمالَهم، واتَّفق لبعضهم من اللُّطَف ما يشبه الكرامات، فانبسطوا بالدَّعاوى» اهـ[1].

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿واتَّقوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ فمردود من وجوه:

١ ـ أن الواو في ﴿ويُعَلِّمُكُمُ﴾ ليست للعطف، وإنما للاستئناف، فمعنى الآية: «اتقوا الله وخافوا الله أيها المتداينون في الكتاب والشهود أن تضارُّوهم، وفي غير ذلك من حدود الله أن تضيِّعوه، ويعني بقوله: ﴿ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾: ويبيِّن لكم الواجب لكم وعليكم، فاعملوا به»[2].

واختصار القول: وهذا تعليم علَّمكموه الله فخذوا به.

٢ ـ لقد حدَّد رسول الله ﷺ طريق طلب العلم الشرعي، فقال: «إنما العلم بالتعلُّم، والحلم بالتحلُّم، ومَن يتحرَّ الخير؛ يعطه، ومن يتوقَّ الشرَّ؛ يوقَه»[3].

و(إنما) للحصر، ومعنى ذلك أن لا طريق للحصول على العلم إلا بالتعلُّم، والتعلُّم يقتضي بذل الجهد في طلب العلم وتحصيله.

ويزداد هذا الأمر وضوحاً بأمرين:

أ ـ أن رسول الله ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[4]،

---

(١) «تلبيس إبليس»: ابن الجوزي (ص ٣٢٠ ـ ٣٤١) مختصراً.

(٢) «جامع البيان في تفسير القرآن»: ابن جرير (٣ / ٩١).

(٣) حسن كما بينه شيخنا ـ حفظه الله ـ في «الصحيحة» (٣٤٢).

(٤) صحيح بشواهده؛ كما بينه شيخنا في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (٨٦)، فانظره؛ فإنه نفيس.

فجعل رسول الله ﷺ الطلب فرضاً.

ب ـ هذا الطلب لا بدَّ له من طريق يسلكه طالب العلم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً؛ سلك الله به طريقاً من طرق الجنة»(١).

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿**ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾؛ كقوله: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً**﴾، وقوله: ﴿**يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرسولِهِ يؤتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ويَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشونَ بِهِ**﴾(٢).

ومعناه: أن من اتقى الله وطلب علم ذلك؛ جعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقى إليه، ويفرق به بين الحق والباطل.

قال القرطبي: «وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه؛ أي: يحصل في قلبه نوراً يفهم به ما يُلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقاً يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً**﴾»(٣).

وهذا الفهم هو الذي أشار إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سأله أبو جحيفة: هل عندكم كتاب؟ قال: «لا؛ إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»(٤).

---

(١) حسن كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٨).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ابن كثير (١ / ٣٤٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن»: القرطبي (٣ / ٤٠٦).

(٤) البخاري (١ / ٢٠٤ ـ فتح).

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ طلبوا العلم، وجدُّوا في تحصيله، ورووه، فآتاهم الله فهماً، وهم أئمة المتَّقين: ﴿**واجْعَلْنا للمُتَّقينَ إماماً**﴾ [الفرقان: ٧٤].

فكل تقيٍّ يأتم بهم، والتقوى واجبة كما علمت، فعلم أن الائتمام بهم واجب، والعنود عن سبيلهم مظنة الفتنة والمحنة.

وأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿**وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً**﴾ [الكهف: ٦٥]؛ فمردود من وجوه؛ منها:

١ ـ من المقطوع به أن الخضر عليه الصلاة والسلام نبيٌّ يوحى إليه[1].

٢ ـ أن هذا في شريعة غير شريعتنا، أما شريعتنا؛ فلا ينبغي لأحد أن يختار غيرها، أو أن يتعلم غيرها، أو أن يدَّعي أنه مع رسول الله ﷺ كالخضر مع موسى، فهذا كفر صراح؛ لأنه لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباع محمد ﷺ.

ونشد عضدك أخا الإيمان بما يجلو الحق، فلا ترتاب، فنقول: مما يدل على أن العلم ركن من أركان التقوى أمور:

١ ـ قرن الله سبحانه وتعالى تزكية النفوس التي بعث من أجلها محمد ﷺ مع تعليم الكتاب والحكمة، كما تقدَّم في الفصل الثالث أن تزكية النفوس ركن من أركان البعثة النبوية.

٢ ـ قرن رسول الله ﷺ العلم بالتقوى، فقال في حديث النفر الثلاثة

---

(١) مضى تنبيه على ذلك (ص ١١٤).

الـذين جاؤوا إلى بيوت النبي ﷺ وسـألـوا عن عبـادته وتقالُّوها: «أما إن أعلمكم بالله وأتقاكم لله أنا»[1].

٣ ـ قرن الله سبحانه الهدى بالتقوى في مواطن من كتابه:

فقـال في فواتـح سورة البقـرة: ﴿**ذلـك الكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً للمُتَّقينَ**﴾، ثم ذكر صفاتهم وختمها بقوله: ﴿**أولئكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وأُولئكَ هُمُ المُفْلِحونَ**﴾.

وقال: ﴿**أرأَيْتَ إنْ كانَ عَلى الهُدى أو أَمَرَ بالتَّقْوى**﴾ [العلق: ١١].

وبذلك يتبيَّن أن الهدى أصل التقوى، والهدى معرفة الحق بدليله.

ولذلك؛ فلن تستقر التقوى في القلب إلا وهو على هدى من ربه، وبـذلـك صرح القـرآن الكـريم: ﴿**والَّـذينَ اهْتَـدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وآتاهُمْ تَقْواهُمْ**﴾ [محمد: ١٧].

وقد جُمِعت أركان التقوى في تعريف طلق بن حبيب العَنَزي رحمه الله لها، فعن بكر المزني؛ قال: لما كانت فتنة ابن الأشعث؛ قال طلق بن حبيب: اتّقوها بالتَّقوى. فقيل له: صف لنا التقوى. فقال: «العمل بطاعة الله، على نور من الله؛ رجاء ثواب الله، وترك معاصي الله، على نور من الله؛ مخافة عذاب الله».

وعلَّق الحـافظ الـذهبي رحمـه الله على هذه الكلمة؛ فقال: «أبدع وأوجز؛ فلا تقوى إلا بعمل، ولا عمل إلا بتروٍّ من **العلم والاتِّباع**، ولا ينفع ذلـك إلا **بالإخلاص لله**، لا ليُقال: فلان تارك للمعاصي بنور الفقه، إذ

(١) أخرجه: البخاري (٩ / ١٠٤ ـ فتح)، ومسلم (٩ / ١٧٥ ـ ١٧٦ ـ نووي).

المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون الترك خوفا من الله، لا ليُمْدح بتركها، فمَن داوم على هٰذه الوصية؛ فقد فاز»[1].

فاظفر ـ يا عبدالله ـ بهٰذا المقام، واحذر مزالقه؛ فقد ضلت فيه أفهام، وزلَّت فيه أقدام، نسأل الله حسن الختام.

* * * * *

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٦٠١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثامن
الكشف عن منهج التصوف في تزكية النفوس

«الصوفية من جملة الزهاد؛ إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال، وتوسَّموا بسمات، فاحتجنا إلى إفرادهم بالذكر.

والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهِرونه من التزهُّد، ومال إليهم طلاب الدنيا؛ لما يرون عندهم من الراحة واللعب.

فلا بدَّ من كشف طريقة القوم، ولا ينكشف ذلك إلا بكشف أصل هٰذه الطريقة وفروعها، وشرح أمورها.

كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلَّقوا بالزهد والتعبُّد، فتخلَّوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتَّخذوا في ذلك طريقة تفرَّدوا بها، وأخلاقاً تخلَّقوا بها، فسُمُّوا بالصوفية.

وقد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفَّة، ونسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلطٌ، لأنه لو كان كذلك؛ لقيل: صُفِّيٌّ.

وقد ذهب قوم إلى أنه من الصوفانة، وهي بقلة رعناء قصيرة، فنسبوا إليها؛ لاجتزائهم بنبات الصحراء، وهٰذا أيضاً غلطٌ؛ لأنه لو نُسِبوا إليها؛ لقيل: صوفانيٌّ.

وقال آخرون: هو منسوبٌ إلى صوفة القفا، وهي الشعرات النابتة في مؤخره، كأنَّ الصوفي عطف به إلى الحق، وصرفه عن الخلق.

وقال آخرون: بل هو منسوب إلى الصوف، وهذا يُحتَمل[1].

وهٰذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مئتين، ولما أظهره أوائلهم؛ تكلَّموا فيه وعبَّروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوُّف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع بردِّه عن الأخلاق الرذيلة، وحملِه على الأخلاق الحسنة، التي تُكسب المدائح في الدُّنيا والثواب في الأخرى.

وعلى هٰذا كان أوائل القوم، فلبَّس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبَّس على مَن بعدهم من تابعيهم، فكلَّما مضى قرنٌ؛ زاد طمعُه في القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم، إلى أن تمكَّن من المتأخِّرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه أنَّه صدَّهم عن العلم[2]، وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم؛ تخبَّطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن المقصود من ذٰلك ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبَّهوا المال بالعقارب، ونسبوا أنه خُلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس، حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع.

---

(١) وهو الصواب كما سيأتي تحقيقه إن شاء الله (ص ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢) ما مضى بيانه (ص ١١٠).

وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة، غير أنهم على غير الجادَّة[1]، وفيهم من كان ـ لقلَّة علمه ـ يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري!

ثم جاء أقوام، فتكلَّموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنَّفوا في ذلك؛ مثل: الحارث المحاسبي.

وجاء آخرون، فهذَّبوا مذهب التصوُّف، وأفردوه بصفات ميَّزوه بها، من الاختصاص بالمرقَّعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق وتميَّزوا بزيادة النظافة والطهارة.

ثم ما زال الأمر يَنْمى، والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً، ويتكلَّمون بواقعاتهم، ويتَّفق بعدهم عن العلماء، لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم، حتى سمَّوه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر.

ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة، فادَّعى عشق الحق والهَيَمان فيه، فكأنَّهم تخايلوا شخصاً مستحسن الصورة، فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر والبدعة.

ثم تشعَّبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء مَن قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتحاد.

وما زال إبليس يخبِطُهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سنناً.

وجاء أبو عبدالرحمٰن السُّلمي، فصنَّف لهم كتاب «السُّنن»، وجمع

---

(١) وكم من مريد للخير لن يبلغه، وكل خير في الاتباع، وكل شر في الابتداع.

لهم «حقائق التفسير»[1]، فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد إلى أصل من أصول العلم، وإنما حملوه على مذاهبهم.

والعجب من ورعهم في الطعام، وانبساطهم في القرآن[2].

*** من مصنَّفاتهم المنحرفة وتآليفهم الضالَّة:**

وصنَّف لهم أبو نصر السرَّاج كتاباً سمَّاه «لُمع الصوفية»، ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول.

وصنَّف لهم أبو طالب المكيّ «قوت القلوب»، فذكر فيه الأحاديث الباطلة، وما لا يُستَنَد فيه إلى أصل من صلوات الأيام والليالي، وغير ذلك من الموضوع، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد، وردَّد فيه قول: «قال بعض المكاشَفين»، وهذا كلام فارغ، وذكر فيه عن بعض الصوفية أن الله عز

---

(١) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٧ / ٢٥٢):

«في «حقائق تفسيره» أشياء لا تسوغ أصلاً، عدَّها بعض الأئمة من زندقة الباطنية، وعدها بعضهم عرفاناً وحقيقة!!

نعوذ بالله من الضلال ومن الكلام بهوى.

فإنَّ الخير ـ كل الخير ـ في متابعة السنة والتمسك بهدي الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم.

(٢) أي يتحرزون في الأكل والشرب؛ كما كان أوائلهم، ولكنهم أسرفوا في القول في القرآن بالوساوس والخطرات والآراء.

ولكن متأخريهم أسرفوا في الأمرين، حتى قال الفقيه أبو إسحاق الشيرازي:

أرى جيل التصوُّف شر جيل ... فقل لهُم وأهْون بالحُلول

أقال الله حين عشقتموه ... كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

وجلَّ يتجلَّى في الدُّنيا لأوليائه!

قال أبو طاهر محمد بن العلاَّف: دخل أبو طالب المكيُّ إلى البصرة بعد وفاة أبي الحسين بن سالم، فانتمى إلى مقالته، وقدم بغداد، فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ، فخلَّط في كلامه، فحُفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوق أضرُّ من الخالق! فبدَّعه الناس، وهجروه، فامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك.

قال الخطيب: وصنف أبو طالب المكيُّ كتاباً سمَّاه «قوت القلوب» على لسان الصوفية، وذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة في الصفات.

وجاء أبو نعيم الأصبهاني، فصنَّف لهم كتاب «الحلية»، وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة، ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً وسادات الصاحبة رضي الله عنهم! فذكر عنهم فيه العجب! وذكر منهم شُريحاً القاضي، والحسن البصري، وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل!!

وكذلك ذكر السلمي في «طبقات الصوفية»: الفضيل، وإبراهيم بن أدهم، ومعروفاً الكرخي، وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهَّاد!

فالتصوف مذهب معروف، يزيد على الزهد، ويدلُّ على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف.

وصنَّف لهم عبدالكريم بن هوازن القشيري كتاب «الرسالة»، فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء، والقبض والبسط، والوقت

والحـال، والـوجد والوجود، والجمع والتفرقة، والصحو والسكر، والذوق والشرب، والمحو والإثبات، والتجلِّي والمحاضرة، والمكاشفة واللوائح، والطوالع واللوامع، والتكوين والتمكين، والشريعة والحقيقة... إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء، وتفسيره أعجب منه!

وجاء محمد بن طاهر المقدسي، فصنف لهم «صفوة التصوف»[1]، فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها.

وكـان شيخُنـا أبـو الفضل بن ناصر الحافظ يقول: كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة.

وصنَّف كتاباً في جواز النظر إلى المرد، أورد فيه حكاية عن يحيى بن مَعين؛ قال: رأيت جارية بمصر مليحة، صلى الله عليها! فقيل له: تصلِّي عليها؟ فقال: صلى الله عليها وعلى كل مليح.

قال شيخُنا إبن ناصر: وليس ابن طاهر ممَّن يحتجُّ به.

وجـاء أبـو حامـد الغزاليُّ، فصنَّف كتاب «الإحياء»[2] على طريقة القـوم، وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها، وتكلَّم في علم

---

(١) قال ابن الجوزي في «المنتظم» (٩ / ١٧٨).

«وصنّف كتاباً سماه «صفوة التصوف»، يضحك منه من يراه، ويعجب من استشهاده على مذاهب الصوفية التي لا تناسب».

وأخذ كلام ابن الجوزي سِبْطُهُ في «مرآة الزمان» (٨ / ٣٠).

(٢) وقد جعله الشيخ سعيد حوّى رحمه الله أصلاً في تزكية النفوس، واختصره في «المستخلص في تزكية الأنفس»، فقدَّم وأخَّر، وبهرج وغيَّر ولكن تغيير شكل من أجل الأكل(!).

المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوارٌ هي حجب الله عزَّ وجلَّ، ولم يرد هٰذه المعروفات!.

وهٰذا من جنس كلام الباطنيَّة!

وقال في كتابه «المفصح بالأحوال»: إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقَّى الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق.

وكان السبب في تصنيف هٰؤلاء مثل هٰذه الأشياء قلَّة علمهم بالسنن والإسلام والآثار، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم، وإنما استحسنوها لأنه قد ثبت في النفوس مدح الزهد، وما رأوا حالة أحسن من حالة هٰؤلاء القوم في الصلاة، ولا كلاماً أرقَّ من كلامهم، **وفي سير السلف نوع خشونة**[1]، ثم إن ميل الناس إلى هٰؤلاء القوم شديد؛ لما ذكرنا من أنها

---

(١) ولهذا ادّعى بعضهم أن المنهج السلفي في التربية ذو جفاف روحي كما زعم مؤلف «الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية» (ص ٧١).

وقد اغتر به آخرون فرددوا مقالته دون وعي وبصيرة.

وهذه المقالة ذات شقين جهل وضلالة:

أما الجهل: فقد جهل القائل والناقل معنى التربية وتزكية النفوس، وهو أن تزكية النفوس يعني تطهيرها من أدرانها، وتنقيتها من سخائمها، وتقويمها على الحق، فهي عملية «تنظيف»، وهل يوجد «تنظيف» دون نوع خشونة(!).

أما الرقة الصوفية فجلود الضأن على قلوب الذئاب، كما قال ابن قيم الجوزية في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٣٩ ـ ٤٠ ـ المهذب): =

طريقةٌ ظاهرها النظافة والتعبُّد، وفي ضمنها الراحة والسماع، والطباع تميل إليها.

وقد كان أوائل الصوفية ينفرون من السلاطين والأمراء، فصاروا أصدقاء.

وجمهور هٰذه التصانيف التي صنِّفت لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعاتٌ تلقَّفها بعضهم عن بعض، ودوَّنوها، وقد سمَّوها بالعلم الباطن.

قال إسحاق بن حيَّة: سمعتُ أحد بن حنبل وقد سئل عن الوساوس والخطرات؟ فقال: ما تكلَّم فيها الصحابة ولا التابعون.

ورُوِّينا عن أحمد بن حنبل أنه سمع كلام الحارث المحاسبيِّ، فقال لصاحب له: لا أرى لك أن تجالِسَهم.

وعن سعيد بن عمرو البرذعي؛ قال: شهدتُ أبا زرعة وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه؟ فقال للسائل: إياك وهٰذه الكتب، هٰذه الكتب

= «فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلب في ظلمات، وإذا قابلت بصريته الخفاشية ما بعث الله به محمد ﷺ من النور جدَّ في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ووافقها قطع في الليل مظلم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان حال ومال، وأبدى وأعاد، وقعقع وفرقع، فإذا اطلع نور الوحي، وشمس الرسالة انحجز في حجرة الحشرات».

وأما الضلالة فاتهام للسلف الصالح الذي كانوا أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً.

وانظر تفنيد هذه الجهالة والضلالة في ثنايا رسالتي «درء الارتياب عن حديث ما أنا عليه والأصحاب» نشر دار الراية ـ الرياض.

كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر؛ فإنك تجد فيه ما يُغنيك عن هٰذه الكتب. قيل له: في هٰذه الكتب عبرة! قال: من لم يكن له في كتاب الله عزَّ وجلَّ عبرة؛ فليس له في هٰذه الكتب عبرة، بلغكُم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمة صنَّفوا هٰذه الكتب على الخطرات والوساوس وهٰذه الأشياء؟! هٰؤلاء قومٌ خالفوا أهل العلم، يأتوننا مرَّة بالحارث المحاسبي، ومرة بعبدالرحيم الدَّيْبُلِّي، ومرة بحاتم الأصم، ومرة بشقيق. ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع[1].

وقد ذكر أبو بكر الخلال في «كتاب السنة» عن أحمد بن حنبل أنه قال: حذِّروا من الحارث أشدَّ التحذير، الحارث أصل البليَّة ـ يعني في حوادث كلام جهم ـ، ذاك جالسه فلان وفلان، وأخرجهم إلى رأي جهم، ما زال مأوى أصحاب الكلام، حارثٌ بمنزلة الأسد المرابط، انظر أيَّ يوم يثب على الناس!

*** أوائل الصوفية يقرُّون بأن التعويل على الكتاب والسنة:**

كان أوائل الصوفية يقرُّون بأن التعويل على الكتاب والسنَّة، وإنما لبَّس الشيطان عليهم لقلَّة علمهم!

وإذ قد ثبت هٰذا من أقوال شيوخِهم؛ وقعت من بعض أشياخهم غلطات لبُعدهم عن العلم، فإن كان ذٰلك صحيحاً عنهم؛ توجَّب الرد عليهم، إذ لا محاباة في الحق[2]، وإن لم يصحَّ عنهم؛ حذَّرنا من مثل هٰذا

(١) وانظر لزاماً كتابي «مؤلفات سعيد حوى دراسة وتقويماً» (ص ٤١، ٤٢).

(٢) هذا أصل هام في أصول الإسلام، وهو الرد على المخالف.
وللأخ الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رسالة ما تعة في تفصيله، فانظرها غير مأمور.

القول وذلك المذهب من أي شخص صدر.

فأما المتشبِّهون بالقوم، وليسوا منهم؛ فأغلاطهم كثيرة، ونحن نذكر بعض ما بلغنا من أغلاط القوم، والله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلا تنزيه الشريعة والغيرة عليها من الدَّخَل، وما علينا من القائل والفاعل، وإنما نؤدِّي بذلك أمانة العلم، وما زال العلماء يبيِّن كل واحد منهم غلط صاحبه قصداً لبيان الحق، لا لإظهار عيب الغالط.

ولا اعتبار بقول جاهل يقول: كيف يردُّ على فلان الزاهد المتبرَّك به؛ لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة، لا إلى الأشخاص، وقد يكون الرجل من الأولياء، وأهل الجنة، وله غلطات، فلا تمنع منزلته بيان زلله.

واعلم أن من نظر إلى تعظيم شخص ولم ينظر بالدليل إلى ما صدر عنه؛ كان كمن ينظر إلى ما جرى على يد المسيح صلوات الله عليه من الأمور الخارقة، وكم ينظر إليه، فادَّعى فيه الإلٰهية، ولو نظر إليه، وأنه لا يقوم إلا بالطَّعام؛ لم يعطه إلا ما يستحقُّه»[1].

ولذلك رأينا كشف زلل رجلين لهما في نفوس أتباعهما منزلة كبيرة.

زعم الشيخ حسن البنا رحمه الله أن التصوف علمٌ يرتبط بقضايا القلب، وزكاة النفس؛ فهو علم استنباط قواعد السلوك الإسلامي من مصدريه الكتاب والسنة، وتقنين الأخلاق الفاضلة، فهو بمعنى التقوى، ولا مشاحة في الاصطلاح، ولا مبرر للإنكار أصلاً، إذ ما مبرِّر الإنكار على

---

(١) «تلبيس إبليس»: ابن الجوزي (ص ١٦٠ ـ ١٦٩) مختصراً.

اسم مباح أُطلق على علم من العلوم حتى أصبح علماً عليه[1].

إن هٰذا الادعاء تقوُّل على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، كيف وهو ينقضه الدليل، وينقصه البرهان؟!

١ ـ لم يعهد في اللغة العربية كلمة التصوف بمعنى التقوى، وإنما المعروف: التزكية والزكاء؛ أي: النماء والطهر، وهو مأخوذ من قول العرب: زكا الزرع؛ إذا نما وأينع؛ لذٰلك اطَّرد مجيء هٰذه الكلمة في كتاب الله وسنة رسوله للدلالة على: تطهير الأنفس، وتطييبها، وتنقيتها من قبائحها.

إذن؛ فكلمة التصوف إن أطلقت واستعملت بمعنى التقوى والتزكية مردودة على أصحابها؛ لأن هٰذا الاشتقاق لا يستقيم لغوياً، والكلمة دخيلة على لغة العرب بهٰذا المفهوم.

ويؤكد ما ذهبت إليه اضطراب المتصوفة أنفسهم في تفسير هٰذا الاصطلاح.

يقول الكلاباذي: لم سميت الصوفية صوفية؟ قال طائفة: إنما سميت صوفية لصفاء أسرارها. وقال بشر بن الحارث: الصوفي مَن صفا قلبه لله. وقال بعضهم: الصوفي مَن صفت لله معاملته، فصفت له من الله عزَّ وجل كرامته. وقال قوم: إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عزَّ وجلَّ بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه. وقال قوم: إنما سمُّوا صوفية لقرب أوصافهم من

---

(١) «مذكرات الدعوة والداعية» (ص ٢٥ ـ ٢٦)، طبعة الشهاب.

أوصاف أهل الصفَّة الذين كانوا على عهد رسول الله. وقال قوم: إنما سموا صوفية للبسهم الصوف[1].

ويحاول أن يجهد نفسه في الجمع والتوفيق بين هٰذه الأقوال، وفي النهاية يظهر الله الحق على لسان هٰذا الصوفي، فيقول: وإن جعل مأخذه من الصوف؛ استقام اللفظ، وصحَّت العبارة من حيث اللغة[2].

ويقول ابن الجوزي: «إن نسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صفِّي»[3].

إن اعتراف المتصوفة وغيرهم بأن هٰذا اللفظ لا يستقيم عموده إلا إذا كان مشتقًا من الصوف، وهو الحق واقعاً؛ فإن الصوفيين اشتهروا بلباس الصوف للتَّدليل على زهدهم وتقشُّفهم، والصحيح اشتقاقاً؛ فالصوفية نسبة إلى الصوف، وهٰذا ما استحسنه السهروردي[4] ـ وهو من أئمتهم ـ، وأجازه ابن الجوزي حيث قال: وقال آخرون: بل هو منسوب إلى الصوف، وهٰذا يحتمل[5].

وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[6]، وكذلك ابن خلدون حيث قال: «والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى

(١) «التعرف على مذهب التصوف» (ص ٢١).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٦).

(٣) «تلبيس إبليس» (ص ١٦٣).

(٤) «عوارف المعارف على هامش الإحياء» (١ / ٢٩٥).

(٥) «تلبيس إبليس» (ص ١٦٣).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١١ / ٦ ـ ٧).

لبس الصوف»[1].

٢ ـ ولـو فرضنا جدلاً صحة القول الآنف، واستبدلنا كلمة التقوى والتـزكية بكلمة التصوف؛ فإن هٰذا الالتفات ترك للمصطلحات القرآنية، واستبـدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وعليه؛ فإن إصرارنا على لفظ التقوى والتزكية تمسك بحرفيَّة النص، ووقوف عند حده، وإلا انقلب الأمر إلى ضده.

٣ ـ إن تزكية النفس، وتنقيتها من قبائحها، وتصفيتها من أدرانها، والسمو بها إلى مكارم الأخلاق وصالحها إحدى المهمات التي من أجلها بعث الرسول ﷺ على فترة من الرسل.

قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسولاً مِنْهُمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ**﴾ [الجمعة: ٢].

والذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة؛ فقد شرع الله الوسائل، وبيَّنها رسوله ﷺ للوصول إلى هٰذه الغاية.

وأما الشيخ سعيد حوى ـ رحمه الله ـ فقد قسَّم الإسلام إلى عقائد وأحكام فقهية ثم تصوف، وبنى على ذلك أوهاماً أكبر من جبال الهملايا، لكنهـا أرفـع من أعـواد الخيزران، وهـا هي أقواله ناطقة بالحق، وفصل الخطاب على أحواله.

١ ـ **التصوف يكمل العقائد والأحكام الفقهية**؛ قال: «وعلم التصوف

---

(١) «المقدمة» (ص ٤٦٧).

هو الذي يكمل العقائد من حيث إنه الجانب التحقُّقي فيه»[1]، وقال: «فما هو العلم الذي يكمل علم الفقه في هٰذه الشؤون؟ لا شك أنه علم التصوف»[2].

٢ ـ التصوف الوسط الذي تكتسب فيه العقائد والأحكام الشرعية المرونة والحياة؛ قال: «ومن أجل تذوُّق العقائد الإسلامية وإقامة الأحكام الشرعية قام علم التصوف»[3].

ويستدل على ذٰلك بمفاهيم خُيِّلَ إليه أنها أدلة؛ قال: «افتح الآن كتاب توحيد وكتاب فقه؛ فإنك لا تجد فيها أي إشارة لقضية القلب وعلومه، فكتب التوحيد تعصم العقل من الخطإ في باب العقائد، وكتب الفقه تعصم العمل من الخطإ، ولكن لا تجد في هٰذه الكتب أي تفصيل في باب القلب والنفس والشعور، وهٰذا وحده يشير إلى أن هناك علماً مكملاً لهٰذه العلوم، وقد اصطلح على أن يسمى هٰذا العلم التصوف أو علم السلوك إلى الله عزَّ وجلَّ.

ثم افتح الآن كتاب عقائد أو كتاب فقه؛ فإنك لا تعثر فيهما على بحث عن أدب الحياة والتعامل، وهٰذا يشير إلى أن هناك فراغاً موجوداً لا بدَّ أن يملأه علم من العلوم ويكمل بناءه علمي الفقه والعقائد، وفعلاً؛ فإننا نجد أن كتب التصوُّف هي التي تسدُّ هٰذا الفراغ.

ومن ثم فإنك تجد أن كل باب من أبواب العقائد لا بد أن يوجد ما

---

(١) «تربيتنا الروحية» (ص ٦٤).

(٢) «تربيتنا الروحية» (ص ٦٨).

(٣) «جولات في الفقهين» (ص ٣٩).

يكمله في باب التصوف، وكل باب تقريباً من أبواب الفقه لا بدَّ أن يوجد ما يكمله في باب التصوف والسلوك»[1].

هٰذا التصور من مقتضيات التمذهب والإعراض عن الكتاب والسنة، حيث التزم أكثر الناس التقيُّد بالفقه المدوَّن في كتب المذاهب الأربعة لا يحيدون عنه.

إن كتب العقيدة والفقه خلت من الإشارة إلى الإخلاص والتقوى؛ لأنها أسست على هٰذا الأصل الذي لا يثبت أمام النقد العلمي.

الأولى والأحرى بنا أن نقول: افتح الآن تفسيراً لكتاب الله، وكتاباً يجمع بين دفتيه ما ثبت من حديث رسول الله؛ فإنك ستجد الإشارات تترى لقضايا القلب وعلومه، وتجد تفصيلاً في كل ذلك.

وقد ضمن الله لنا العصمة في الوحيين الكتاب والسنة، ولم يضمنهما في غيرهما من الكتب؛ قال الرسول ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما إن تمسَّكتم بهما: كتاب الله وسنّتي[2].

وهٰذا التصور من لوازم الاعتقاد أن التصوف علم مستقلٌّ بذاته عن العقائد والأحكام، ومن المعلوم أن أمور التقوى ثمرة التطبيق الكامل للعقائد والأحكام الشرعية كما بيَّنَّا في طلائع هٰذا الكتاب؛ لذلك لا يجوز أن نفصل بين العبادة وغايتها وثمرتها، بل قرن الله دائماً بين العبادة والثمرة؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدوا ربَّكُمُ الّذي خَلَقَكُمْ والّذينَ مِنْ**

(١) المصدر السابق (ص ١١٨).

(٢) صحيح بشواهده؛ كما بينته في «مجمع البحرين في تخريج أحاديث الوحيين» (الحديث الثاني).

﴿قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ﴾ [البقرة: ٤١]، فعلم أن غاية العبادة كلها التقوى، ولا يكون الإنسان تقيّاً إلا بالعبادة المقيَّدة بالأدلَّة الشرعيَّة المحرَّرة في ضوء الكتاب والسنة، ومَن رغب عن ذلك؛ فهو كباسط كفَّيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه.

وإذا علمنا ذٰلك؛ فيجب أن نؤمن أن الله قد أتمَّ هٰذا الدين شرعة ومنهاجاً؛ لأن الذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة، وقد بيَّن ذٰلك في كتابه: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي ورَضيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

وحسبك هٰذا دليلاً لتعلم خطورة القول أن الإسلام يبقى ناقصاً في مجال التربية والإسلام كله تربية، ما لم نأخذ ونستفد من التجربة الصوفية.

يقول سعيد حوى ـ رحمه الله ـ: «إنه بدون الاستفادة من التجربة الصوفية قد لا نستطيع أن نعالج الكثير من أمراض النفس التي عقدتها مسيرة الحياة وطبيعة العصر»[1].

وقال: «لقد جربت كثيراً، ورأيت كثيراً، ونادراً ما وجدت كمالاً في النفس، أو إحساناً في السلوك، أو قدرة على التعامل؛ إلا إذا وجدت تربية صوفيَّة صافية، وذٰلك لأن مفاتيح النفس البشرية إنما هي في هٰذه التربية وأصولها وقواعدها؛ لأن الصوفية هم الذين ورثوا عن الرسول ﷺ تربية النفس، وتخصَّصوا لذٰلك، وتفرَّغوا، وفطنوا لما لم يفطن له غيرهم، وقامت لهم أسواق من التجارب الثرَّة في كل عصر، فما لم يأخذ الإنسان عنهم؛

(١) «تربيتنا الروحية» (ص ٢٠).

تبقى نفسه بعيدة عن الحال النبويَّة؛ إن الصوفية هم الذين ملكوا العلم الذي تتهذَّب به النفوس البشرية»[1].

إن تجارب الصوفية قاصرة وناقصة؛ لأنها تجارب بشرية، وكل ابن آدم خطَّاء، والله لم يضمن العصمة لأحد من البشر إلا الأنبياء عليهم السلام؛ لذلك لم يدع أمر القلب والنفس والتربية للتجربة، بل وضع منهاجاً جامعاً لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في حياة الإنسان من مولده إلى لحده إلا أحصاها، وأمر رسوله ﷺ وأمته أن تتَّبع سنن الهدى التي أنزلها حذو القذَّة بالقذَّة، فقال عز من قائل: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فاتَّبِعْهَا ولا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذين لا يعْلَمونَ**﴾ [الجاثية: ١٨].

ثم إن هٰذه المناهج التي اندرجت تحت اسم التصوُّف قد جمعت في طيَّاتها شرّاً مستطيراً، وبلاء بلا حصر ولا حد، ولو جرَّدنا التصوف من الشوائب التي تراكمت عليه عبر العصور، وصفَّيناه من الدَّخن؛ لم يبق منه شيء، وهٰذا كتاب الله وسنة رسوله، حكم بيننا وبين من أصرَّ على التصوف، وتمسَّك بأمور منه، وعضَّ عليها بالنواجذ.

ويقول سعيد حوى ـ رحمه الله ـ: «إنني حريص على أن يوجد نوع من التصوف السلفي (!) له شيوخه وحلقاته: حلقات العلم والذكر، وليس أمامي غير هذا الطريق»[2].

وحتىٰ يثبت لمريديه وجود هذا التصوف السلفي المزعوم زعم أن

---

(١) المصدر السابق (ص ٢١).

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ١٦).

شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يمجد التصوف فقال:

إن هنـاك مجلدان من فتاوى ابن تيمية هما العاشر والحادي عشر يحملان اسم التصوف ولم ينكر ذلك أحد.

ألم يعلم أن هذه العناوين ليست من وضع ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بادىء بدء، وعلى فرض أنهـا من وضـع ابن تيمية ـ رحمـه الله ـ فهـذه المجلدات ليست في مدح التصوف بل في ذمِّه وبيان خطله وزلله[1].

* * * * *

(١) وانظر كتابي «ابن تيمية المفترى عليه» (ص ٤٦ ـ ٤٨).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
تنبيهات هامة على خطبة الحاجة ٦
معالم المنهج النبوي في العقيدة ٦
معالم المنهج النبوي في تزكية النفوس ٦
معالم المنهج النبوي في التلقي ٧
بيان سبب تأليف الرسالة ٨
الفصل الأول: تزكية النفوس من مقومات الأمم ١٥
الفصل الثاني: دعوة الأنبياء إلى تزكية النفوس ١٧
بيان أن جميع المرسلين دعوا أقوامهم إلى تزكية النفوس ١٧
نوح عليه السلام يدعو قومه إلى تزكية النفوس ١٧
هود عليه السلام يدعو قومه إلى تزكية النفوس ١٧
صالح عليه السلام يدعو قومه إلى تزكية النفوس ١٨
لوط عليه السلام يدعو قومه إلى تزكية النفوس ١٨
شعيب عليه السلام يدعو قومه إلى تزكية النفوس ١٨
موسى عليه السلام يدعو قومه إلى تزكية النفوس ١٨
عيسى عليه السلام يدعو قومه إلى تزكية النفوس ١٨
بيان أن تزكية النفوس وصية الله لجميع خلقه ١٩

بيان أن التقوى هي تزكية النفوس ١٩
الفصل الثالث: تزكية النفوس ركن من أركان البعثة النبوية ٢١
تزكية النفوس إحدى مهمات البعثة النبوية ٢١
دعوة إبراهيم ربه أن يبعث في ذريته رسولاً يزكيهم ٢١
تخريج حديث: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ٢٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ ٢٣
تخريج حديث: «كان خلقه القرآن» ٢٣
الفصل الرابع: التقوى لغة واصطلاحاً ٢٧
بيان أصل اشتقاقها ومعناها ٢٧
شواهد لغوية على ذلك ٢٧
بيان معناها شرعاً ٢٨
تفسير أبي بن كعب رضي الله عنه للتقوى ٢٨
أبيات لابن المعتز نظم فيها تفسير أبي بن كعب للتقوى ٢٨
الفصل الخامس: التقوى في كلام الله ورسوله ٢٩
التقوى إذا أضيفت إلى الله سبحانه وتعالى ٢٩
التقوى إذا أضيفت إلى عذاب الله تعالى ٣٠
التقوى إذا أضيفت إلى المحظورات ٣٠
تخريج حديث: «اتقوا الظلم...» ٣٠
تخريج حديث: «واتق دعوة المظلوم...» ٣١
تخريج حديث: «فاتقوا الدنيا...» ٣١
تخريج حديث: «اتّق المحارم تكن أعبد الناس...» ٣١
تخريج حديث: «إن الحلال بيّن...» ٣١
تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب ٣٢
مقامات محاسبة النفس ٣٣
المقام الأول: المشارطة ٣٣
المقام الثاني: المراقبة ٣٤

تخريج حديث: «تلك عاجل بشرى المؤمن» ٣٦
تخريج حديث: «اتق الله حيثما كنت...» ٣٦
المقام الثالث: المجاهدة ٣٧
المقام الرابع: التسليم، وفيه كلام نفيس لابن القيم ٣٧
تخريج قول عمر: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى...» ٤١
المقام الخامس: الرضى ٤٢
الباب الأول: الرضى بالله ربّاً ٤٢
أمور تعين على الرضى بالله ربّاً ٤٤
الرضى عن الله ٤٥
الفرق بين الرضى بالله والرضى عن الله ٤٥
أمور تعين على الرضى عن الله ٤٧
الباب الثاني: الرضى بمحمد ﷺ رسولاً ٥٠
الباب الثالث: الرضى بالإسلام ديناً ٥١
الأوقات التي يردد فيها: «رضيت بالله ربّاً...» ٥٤
١ ـ الأذان ٥٤
تخريج حديث: «من قال حين يسمع المؤذن...» ٥٤
٢ ـ في الصباح والمساء ٥٤
تخريج حديث: «من قال حين يمسي وإذا أصبح...» ٥٤
بيان أن المداومة على هذا الذكر من الخصال الموصلة للجنة ٥٤
المقام السادس: السكينة والطمأنينة ٥٥
بيان حقيقة السكينة ٥٥
الفصل السادس: هل لتزكية النفوس وسائل خاصة؟ ٥٩
بيان أن شعائر الإسلام كلها تزكية للنفوس بثلاث قواعد شريفة ٥٩
القاعدة الأولى: استقراء شعائر الدين كلها ٥٩
التوحيد تزكية للنفوس ٥٩
الوضوء طهارة وتزكية ٦١

الغسل والتيمم طهارة وتزكية ٦١
اعتزال النساء في المحيض والنفاس طهارة وتزكية ٦١
بيان أن معنى الطهارة ينتظم طهارة القلوب والجوارح ٦٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وثيابك فطهِّر﴾ ٦٢
الصلاة تزكية للنفوس ٦٣
الزكاة طهارة وتزكية ٦٣
الحج تزكية ٦٥
النسك تزكية ٦٥
مكارم الأخلاق تزكية ٦٥
الحكم بما أنزل الله تزكية ٦٦
جميع شعائر الله تزكية ٦٦
تزكية النفوس هي ثمرة العبادة ٦٧
وهذا هو منهج الأنبياء في تزكية النفوس ٦٧
بيان أن العبادة هي الطريق المؤدي إلى تزكية النفوس ٦٧
نقل نفيس عن شيخ الإسلام في بيان معنى العبادة ٦٧
القاعدة الثانية: معرفة صفات المتَّقين الكمَّل والمؤمنين الخلَّص ٧٥
١ ـ ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ وبيان أن الإيمان بالغيب قطب التوحيد ٧٦
٢ ـ ﴿ويقيمون الصلاة﴾ وبيان أهمية الصلاة في تكوين الأمة الربانية ٧٨
٣ ـ ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ وبيان أهمية الإنفاق في تكون مجتمع متماسك ٧٨
٤ ـ ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ ٨١
٥ ـ ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ ٨٢
القاعدة الثالثة: معرفة من هو الولي؟ ٨٤
كلام نفيس للحافظ ابن رجب الحنبلي ٨٤
الفصل السابع: أركان التقوى ٩٥
١ ـ الإخلاص ٩٥
٢ ـ الاتباع ٩٥

تفسير قوله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ ٩٥
شرطا قبول العمل وصحة العبادة ٩٦
٣ ـ العلم، وبيان كيف تتولد الخشية من العلم ١٠٠
بيان عورات المناهج العلمية المطروحة لتربية أبناء المسلمين ١٠٩
العلم في نظر طوائف المتصوفة ١٠٩
نقل عن ابن الجوزي في تلبيس إبليس على المتصوفة في العلم ١١٠
تخريج حديث: «علم الباطن سر من أسرار الله...» ١١١
تخريج حديث: «العلم علمان...» ١١٢
تفنيد الاستدلال لعلم الباطن بـ ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ ١٢٧
تفنيد الاستدلال لعلم الباطن بـ ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾ ١٢٩
بيان أن العلم ركن من أركان التقوى ١٢٩
كلمة جامعة لطلق بن حبيب في بيان أركان التقوى ١٣٠
تعليق نفيس للحافظ الذهبي على كلمة ابن حبيب ١٣٠
الفصل الثامن: الكشف عن منهج التصوف في تزكية النفوس ١٣٣
نقل نفيس عن العلامة ابن الجوزي في هذا المقام ١٣٣
تفنيد دعوى بعضهم أن المنهج السلفي في التربية ذو جفاف روحي ١٣٩
تفنيد تعريف الشيخ حسن البناء رحمه الله للتصوف ١٤٢
بيان أوهام الشيخ سعيد حوى رحمه الله في هذا الباب ١٤٥
فهرس الموضوعات ١٥١

* * * * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com